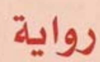
لامين دياكاته

الساحلي في لاغوس



تعريب: طوني يزبك


رواية

مؤسسة الانتشار العربي

الساحلي في لاغوس

لامين دياكاته

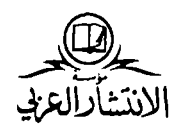
تعريب: طوني يزبك



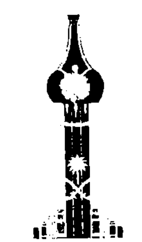


لامين دياكاته

الساحلي في لاغوس



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150



ISBN 978-416-404-005-8

الطبعة الأولى 2009

الفصل الأول

في النصف الثاني من شهر سبتمبر/أيلول، ساد جوٌّ من البرودة الحادّة في لاغوس وفصل الشتاء الماطر يوشك أن ينصرم. بدأ الناس يتناسون خرير مكيفات الهواء الصادح.

يشبه حيّ «ايكوي» السكني جزّة عشبٍ أخضر ضخمة تميل إلى القتامة وهي تعبر شوارعٍ معينة مثل الأوردة الدمويّة. يتماهى شارع «فيكتوريا آيلند»[1] مع سراب شعاع الشمس والشط القريب.

خرجت لاغوس من «ليلها» مرة جديدة. ليل كامدٌ يسيطر عليه مزيج من الأصوات، الضجيج والروائح. تزأر الأمواج فتواكب أصوات ماكينات الطحن المتواصلة في أزيز المحركات التي تدور بعناء. تتداخل الأصوات، تتمازج لينتهي بها المطاف في منظومة إيقاعيّة صادحة، يدركها من لهم نعمة العرافة، بضعة مئات ينتشرون في سوروليري[2] وقرب الأحياء الملاصقة للخليج.

---

(1) «فيكتوريا آيلند»: حيّ حديث من أحياء «لاغوس».

(2) سوروليري: حيّ شعبي في «لاغوس».

احتلّ باعة الزلابية المقلية «والطعام» بكل ألوانه المسالك منذ الخامسة فجرًا. سبقوا الشمس التي تجد صعوبة في خرق السماء الصفيقة التي تظلّل الخليج. أخذ ركاب السيارات والحافلات يتسلحون بنعمة الصبر، خبزهم اليومي. ولم يحاولوا تبديد همهم البارز بقيلولة مختصرة. لم يبدُ أن الأصدقاء يرغبون في مواصلة أحاديث البارحة.

اجتمع ثلاثة رجال في غرفة نزل يقع في شارع «أبابا» قرب المرفأ الذي بدأ يعجّ بالوافدين. كانوا يتناولون فطورًا دسمًا بالإضافة إلى مضغ جوزة الكولا. بدا على رئيسهم أنه يقرأ صحيفة الوفيات في واحدة من الصحف، وأخذ بين الفينة والفينة يلفت انتباه رفيقيه إلى احتفالات ذكرى وفاة أحد أعيان مزارعي الكاكاو وقد خطفه الموت شابًا من بين أفراد أسرته.

كانوا يستذكرون الإشاعات الشعبيّة المتواترة آنذاك في السنة التي رحل الرجل فيها من هذه الدنيا. وتبدّل قطب الحديث والاهتمام، ليتناول وضع أصحاب الحقوق الذين غالبًا ما يكونون تافهين، ولدوا في كنف عائلة محظوظة.

ثمّ ساد صمتٌ. واصل «الزعيم» استكشاف الصفحات بينما تابع الصديقان تأملاتهما. وصل الثلاثة إلى لاغوس منذ أسبوع. لم تكن رحلتهم الأولى إلى العاصمة، التي خبروا كل حيّ فيها حتى الأماكن الأكثر حميميّة. هذه المرة

اختاروا أن تكون إقامتهم بالغة السريّة. بدا أن الهدوء السائد في هذا النزل يروق لهم بالإضافة إلى قرب المرفأ المكتظ من مكان إقامتهم. لم تكن إقامتهم في أقصى الحالات لتتخطّى الأسبوع. كانت الأعمال تأخذهم إلى مكانٍ بعيد، إلى الغابون إلى الامبراطورية الوسط أفريقية «الزائير».

عندما سيغادرون «اللاغوس»؛ سيمكثون ثلاثة أيام في قريتهم الواقعة على الحدود بين «نيجيريا» و«الكاميرون». تعوّدوا عبور الحدود في ساعات الليل المتقدمة، وقد حباهم اللّه بمواهب أخرى؛ التلاعب بصورة مشبوهة بسعر صرف العملات والأسعار المتوازية.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل الهدوء وحده سبب قدوم هؤلاء الرجال إلى هذا النزل المحاذي لمرفأ «أبابا»؟

في الواقع لم تكن الحشرية ولا الإلحاح من شيم إدارة النزل. قام المسافرون الثلاثة بدفع الحساب مقدمًا لقاء إيجار ثلاث غرف منذ اليوم الأول. لم يلتقِ بهم الموظفون حتى الآن. في الصباح الباكر وفي ساعة معينة يقوم اثنان بالانضمام إلى الثالث. هكذا تدخل موظفة التنظيف إلى الغرف، وتشفط الغبار بالمكنسة الكهربائية وتعيد ترتيب الأسرة التي بالكاد تغضنت وتفتح الأبواب.

يلتقي الرجال الثلاثة في الغرفة التي فرغت العاملة من

تنظيفها لتوّها. وبما أن النزل لا يقدّم طعامًا، كان على أحد الرجال أن يتولّى مهمة جلب المأكولات من الخارج.

يخرج صباحًا من النزل، ويعود بعد نصف ساعة يحمل بيده سلّة مملوءة بالمواد الغذائية. عند حلول الظلام، يقوم أحد الثلاثة من الذين يُشاطرون مع الرئيس هَالة الشراكة المشبوهة ويغادر.

قبل أن يُقدم على ذلك ينظر من النافذة نصف المفتوحة ويطيل النظر في الظلام مستكشفًا الشوارع التي توصل إلى المرفأ. بعيد مغادرته، تعود الإضاءة بشكل خجول، ويقوم الرجل الذي أُنيطت به مهمة جلب الطعام بمواصلة مهمة الحراسة كما يفعل ناطور محترف. يبقى في موقعه يراقب كل المدّة التي يغيب فيها شريكه.

الفصل الثاني

قام «زعيم» المجموعة بوضع رزمات الدولارات على سجادة قرب السرير وهو على أهبة الاستعداد لإخفائها بطرفة عين. كان بين الأموال رزمات من عملة النايرا[1] والجنيهات الإسترلينية والفرنكات من الاتحاد الأفريقي. يعدّها مرارًا وتكرارًا ويتأملها بواسطة عدسة مكبّرة؛ ثمّ يدوّن أرقامًا في مفكرة صغيرة لدرجة أن بإمكانها أن تُدَسّ في محفظة نقوده. يحصل له أن يركز انتباهه على أطراف الرسوم المنطبعة على العملة من الرزمات المختلفة، ثم يقوم بفحص كثافة العملة الورقيّة وهو يقارن بينها بتؤدة؛ كما أنه يرفع الأوراق النقدية إلى منخريه ويشمّها.

يشمّها ويقوم بتدوين هذه الملاحظة التي يدركها بإحساسه على مفكرته. يبقى وجهه خاليًا من أي تعبير. لم يكن باستطاعة أحد أن يقرأ ما توحي به من أحاسيس هذه الحركات المتتابعة التي يقوم بها.

في وقتٍ متأخرٍ من الليل، يعود الرجل الذي ذهب

---

(1) نايرا: عملة نيجيرية، حلّت محل الليرة النيجيرية سنة 1972.

ليستكشف، بعد أن يتأكد من أن أحدًا لم يقتفِ أثره. وهذا ما أكّده الرجل الذي كان يحرس النافذة بدوره. حينها يبدأ الرجل الذي كان ينسّق الرزم بجمعها في حقائب ذات سعة كبيرة؛ ويحرص على ترتيبها بدّقة شديدة. ثم يدسّ مفكرته التي تحوي الحسابات في جيب سترته التي لم يكن ليخلعها أبدًا. بعد ذلك ينطرح على الفراش بعد إغلاق الباب والنوافذ ويصغي إلى رفيقه الذي يتلو عليه حيثيات مهمته الاستكشافية. كان الاتفاق ينصّ على عدم استعمال أسماء حقيقيّة. ويجب عند ذكر أسماء الأماكن في «لاغوس» أن لا تتواءم مع أسماءٍ موازية من «يوروبا».

جرت العادة على منح أسماء مقتبسة من شوارع بلدان مألوفة، مثل امبراطورية وسط أفريقيا، «غابون» أو «الزائير».

إنها جغرافية ألسنيّة بامتياز اختارها الرجال الثلاثة من أجل خدمة قضيتهم. في بعض الأمسيات، كانت مهمة المستكشف تنحصر في عملية عبور منطقة عصابة معادية بطريقة متكتمة، حيث يتجاذب أطراف الحديث مع بائعة مأكولات عجوز نصبت كشكها قرب القناة وأشعلت مصباحًا للإنارة يعمل بالزيت. غالبًا ما يطلب المستكشف طبقًا ساخنًا يعينه على تحمل المأكولات الباردة من مشتريات البارحة، ويمضي في لعبة الإصغاء إلى الشتائم بفرحٍ، بينما السيارات تعبر الشارع بسرعة جنونية عاجزة عن تعكير مزاج البائعة الرائق دومًا.

من نقطة المراقبة تلك، يلمح طيفًا مألوفًا، سيارة يقودها رجل من خارج شلّته. في خضم الحديث يتبادل الرجل والمرأة أخبار الولايات الخاضعة لحكم الفيدرالية. وعندما يشعر أن العيون بدأت تراقبه يؤثر الاختفاء من المنطقة برمّتها، ويلجأ إلى النزل لا يغادره مطلقًا. وعندما يشتدّ الشعور بأن المراقبة قد زادت عن اللزوم يقرّ الرأي على مبارحة النزل بشكل نهائي واللجوء إلى مكانٍ آخر، قبل الشروع في مغادرة «لاغوس» «المدينة الكبرى» ولمدة طويلة. يتوارون مدّة كافية تسمح للصابون بغسل القلوب، يبدأ حينذاك الترحال نحو مقاطعات تقع وراء الحدود؛ حيث الأجانب يتمتعون ببعض النفوذ مع ما يتوافق من تقاليد زنجية أفريقية من قوانين حسن الضيافة.

الفصل الثالث

لم يطل المستكشف الكلام على مشاهداته؛ فقد نبس ببساطة ما معناه: «العملية غدًا». فهم «الزعيم» من فوره ولم يطرح سؤالًا واحدًا. أبلغ رفيقيه أنه سيقصد مكانًا ما في فجر اليوم التالي. أُطفئت الأنوار ومضى الليل في سكونٍ تام. عندما عاد «الزعيم» قُبيل صياح الديك، كان رفيقاه لا يزالان يغطان في سباتٍ عميق. كان يحمل تحت إبطه الأيمن صندوقًا أسود يلفه بجلبابه، ما لبث أن وضعه على السرير، ارتدى منامته وقصد مقعدًا وثيرًا جلس فيه وأغمض عينيه. مع ذلك لم يكن هاجسه الرغبة في الرقاد.

بعد أن استعاد نشاطه بشكل كامل، أخذ كجاري عادته يتأمل في أسرار الوجود. كأن كوكبه الخاص هو كوكب مميّز. كان حلمه حلمًا وسطيًا حدوده إحراز ربح كافٍ في بضع سنوات تحدوه رغبة شديدة في أن يكون صاحب ثروة لا بأس بها؛ وأن يكون أيضًا في عداد شخصيات مرموقة يُحسب لها الحساب في بلده الأم. أن يكون رجلًا صاحب نفوذ. حينها سيتحلّق حوله الزبائن، وسيتشرّف رجال السياسة أن يكونوا من بين ضيوفه. عندما سيتدخّل سرًّا في إدارات

الدولة المركزية من أجل تسريع معاملة ما تهمّه شخصيًا أو تتعلّق بأصدقائه ويرى طلبه مستجابًا بسرعة قصوى. يحلم أيضًا بحفلات سيقيمها بين وقتٍ وآخر. أما السهرات السنويّة في ذكرى وفاة قريب يعزّ عليه فقدانه فستكون من بين الأحداث المهمة التي تترك بصماتها في تاريخ المنطقة. سينشر أطنانًا من المدائح في كبريات الصحف في ذكرى مولد رئيس البلاد، وسيجعلها تلفت الانتباه لأنها ستكون منشورة على مدى الصفحات المتوالية.

باختصار، كان الرجل الوحيد في غرفة نزل مجهول من ضواحي مرفأ «لاغوس» يخطط في سريرة قلبه لمشروعٍ كبير. لم يكن عازمًا على الوصول إلى منصبٍ سياسي فالسياسة بالنسبة له وهمٌ بوهم، نظرية أكثر ممّا هي حقيقية. فهو مقتنعٌ منذ زمنٍ بعيد بصحة حكمه. إنه سليل عائلة ورثت أساليب التجارة من أجيالٍ بعيدة، فقد عاش طفولته بين المصانع المتعددة، حيث كانت عائلته تديرها لصالح شركات أجنبية إنجليزية كبرى توزع في مناطق عديدة من بلده.

لم تكن الدروب الصباحية المفروشة بحبّات الندى بغريبة عنه حيث تنقل شحنات الكاكاو والموز والبن. لقد وهب للناس القادمين من الأسواق التجارية في مدينته الصغيرة، شحنات من الأغراض المتفرقة وأدوات ميكانيكية مصنوعة بذكاء وعناية كبيرة.

إنّ النّباهة وعدم بلوغه مبلغ التعقيد جعلا منه قائدًا على شبان الحيّ. وواظب أيضًا على التقدّم في رتبته فتفوّق على أقرانه من سنّه الذين تجمعهم به «أخوّة» العمر. ولو أن في ما بعد كان من المحتم أن ينفرط عقدَ الصداقة، بقيَ رفاقه من سكان المدينة الصغيرة يكنّون له أواصر الصداقة والاحترام الخاص. هو أيضًا واظب على إبقاء جملة من العلائق قائمة؛ على أنها ذخرٌ ورأسمال ثمين. بعد رحلة طويلة خارج المقاطعة يعود لزيارة رفاقه القدماء في فترة عطلة الأسبوع. يقدم لعبًا للأطفال وقطع قماش للزوجات. يفرح الرجال لدى استقباله ويحدثونه عن أعمالهم. كان البعض يطلبون منه رأيه في بعض المسائل أو يكلفونه بوسَاطة معيّنة. والبعض الآخر وبشكل خاص أيضًا، يعرضون عليه المشاركة في صفقات مستعجلة حتى لا تفوت فرصة معينة قد لا تعود وتظهر في مناسبة أخرى.

الفصل الرابع

بالرغم من كل شيء، كان الرجل الحاكم القابع في مقعده الوثير في غرفة هذا النزل المجهول قرب مرفأ «لاغوس»، يوحي باللطف. فقد قدّم خياره في وقت باكر من الحياة، كما نظّم شؤون حياته كما يحلو له. أقام شبكة من العلاقات في «لاغوس» بشكلٍ كثيف. وأيضًا في بعض الحالات الطارئة، لم يكن يتورّع عن القيام بتضحية متخليًا عن الدنيويات. كان خياله يزور منطقة بعيدة، منطقة محظّرة بيد أنها مأهولة «بفصائلٍ بشرية» معينة يشعر أنه يتآلف معها. لم يجبن أبدًا عندما كان يقصد دروبًا لا تلبث وأن تتوارى فجأة في أحراشٍ كثيفة. إن قدرته على إيجاد طريقه وسط العماء؛ تنجّيه دائمًا من الكمائن المنصوبة للإيقاع به.

بعد ذلك يأخذ دربه لملاقاة شركاء يرتعون في مكان إقامةٍ «متوحشٍ»، اختاروا طوعًا السكن فيه. لا ريب أن الحضارة ستدركهم شاؤوا أم أبوا؛ إن عاجلًا أم آجلًا؛ ومن المؤكد أنه في ذلك اليوم ستضطر السلطة المحلية أن تتفاوض معهم، ستفاوضهم على استملاك الأراضي والتموضع في مكانٍ آخر. سيقوم حينها سكّان القفر برحلة

العودة الشرعية إلى حياض المدن حيث يمتلكون عقارات. كما سيخلفون وراءهم في الأرض المستملكة من قبل الدولة، بعض «المستأجرين» الذين أخلصوا لهم في السابق؛ من خلال «هامشيتهم». هؤلاء السكان يعيشون على نيّاتهم، ومع تقدم مشاريع التنمية المعمارية أصبحوا جماعة لا يستهان بها. لديهم قطع أرضٍ مسجّلة عقاريًا. في الحقيقة لم تكن هذه التدابير أمرًا شائعًا في «لاغوس».

هكذا تتأسس المدن الكبرى. يأخذ تطوّرها طابعًا أخطبوطيًا ويتحول إلى تحدٍ، رغبة شديدة في ابتلاع أحياء الضواحي التي يحوّلها الخيال الشعبي إلى مناطق هامشيّة. كلما امتدّ العمران كلّما سقطت الأساطير، يبدو أن نور الكهرباء يطردها؛ كما أن الأسفلت يمحقها ويسوّيها بالأرض في نهاية المطاف. ثم يأتي الساكنون الجدد ويقيمون مع القدامى فيؤسسون سوية لحالة من التاريخ المفقود.

لا زال «الروّاد» الأوائل الذين عرفوا المنطقة عندما تمّ اختيارها في الماضي، يعربون عن غبطتهم التقليديّة. لم يفكروا أبدًا أن سكان المدن قد وضعوهم في خانة التهميش. لا شيء بنظرهم يعلل هذه المستويات، لم يستغلوا أقدميتهم؛ وهم الذين قسموا على أرواح كل الشياطين بغية طردها من الأذهان المتوقّدة خيالًا، أذهان أبناء المدن التي تنحو إلى إيجاد ترياقٍ لمعاناتها اليوميّة.

الفصل الخامس

وصلت الشمس إلى منتصف مدارها. اختلط صوت الصفارات مع زمامير السيارات الملحاحة والشاحنات الضخمة المحملة فوق طاقتها وهي تحاول شقّ طريقها إلى خارج المرفأ الذي يقع في منطقة قريبة.

عاد الرجل المسؤول عن جلب الطعام يتأبط سلةً ضخمة، كان يقوم بحركات تبدو لوهلةٍ خارجةً عن المألوف لو لم يكن يمارسها عادة بشكل طبيعي. عادت إلى عينيه التماعات الذكاء فجأةً، بعد أن بدتا فارغتين من كل حياة.

وضع المسؤول عن الطعام سلّته جانبًا ثم اقترب من المقعد حيث جلس «الزعيم» جلسة متأمّلٍ، انحنى وهمس شيئًا في أذن معلمه. تلى ذلك فترة صمت طويلة. رفع «الزعيم» سبابته ففهم محدّثه لتوّه. كان عليه أن يُدخل إلى الغرفة المجاورة الرجل الذي صادفه في المدينة، والذي أقنعه بوجوب مرافقته لأجل صفقة ما. كان هذا الرجل من منطقة «الساحل» وهو من معارف العصابة القدماء، متقدم في السنّ، ضخم الجثّة، يرتدي سترة شتوية زرقاء ويعتمر قبعة رسمية أكل الدهر عليها وشرب، كما يضع نظارات ضخمة ذات زجاج غامق يحمي به عينيه.

صادفته بعض المشاكل في بلاده مع «العدالة» فقرر عبور الحدود الشرقية. منذ ذلك الوقت تحوّلت حياته إلى سلسلة من الترحال والمحطات المتتابعة في عدة بلدان؛ حيث كان يمكث المدة التي تخوّله «عقد صفقة» وخرق القانون... ثم لا يلبث وأن يعبر الحدود مجددًا تحت جنح الظلام.

عندما وصل إلى «بلاد الأنهر» قبل الحرب الأخوية الضارية[1] أخذ يتعلم اللغات الأساسية واللغات المشتقة منها بالإضافة إلى اللغة الإنجليزية الأساسية. تعرّف إلى مسالك العاصمة بحذافيرها وكان يمتلك ميزة خاصة تقضي بعبور المدينة برمّتها سيرًا على الأقدام.

أما حرفته الأصلية فكانت الصياغة، إذ كان صائغًا مشهورًا وعُرف عنه أنه يحترف صناعة فتائل الذهب والفضّة المعدّة للزخرفة، كما أنه يجيد بواسطة اللمس لا غير تحديد وزن أي سبيكة ذهبية أو سوار فضّي أو مقدار المعادن المستعملة في صناعة حلية معينة يُطلب منه فحصها.

عندما وصل إلى «بلاد الأنهر» حاول «الساحلي» ونفّذ بعض الصفقات المشبوهة. كان يظن أن «حرفته» تتفوّق على السكّان الأصليين، بيد أنه فوجىء ذات صباح بستة رجال

(1) المقصود هنا الحرب الأهلية أو حرب الأشقاء التي اندلعت من سنة 1965 إلى سنة 1970.

ظنّ أنه خدعهم، يتحلقون أمام باب منزله. لم يكن أحدًا من الرجال الستة يعرف بعضهم البعض؛ لم يتفقوا على التواعد أمام منزل الساحلي. كان كل واحد في غمرة الانتظار يلوك جوزة كولا وفي سريرته يستعيد الخديعة التي جعلته يأتي مطالبًا بتعويض ما جرّاء هذه المصيبة الغريبة.

عندما فتح رجلنا الباب وأبصر هذه الوجوه العدائية بانتظاره، أبى أن يتراجع. لا بل أقدم بيده السخية على مصافحة أيدي «ضحاياه» المترددة، كما عرض عليهم شرب القهوة ومن ثمة الاجتماع بكل زائر على حدة. اغتاظ هؤلاء وعلاهم اضطراب شديد. بعد ذلك جرت سلسلة من المجادلات الكلامية في غرفة الساحلي المفردة. أخذ الزوار يدخلون عليه الواحد تلو الآخر؛ ويخرج واحدهم بعد وقتٍ طويل؛ فيغادر بعصبية وكأنه أسقط في يده.

ماذا عرض عليهم مضيفهم من تعويض؟ هو وحده يعرف، فبحسب أدبيات الصفقات التي تسود هذه البلاد يبقى الاتفاق مكتومًا بين الفريق الأول والفريق الثاني.

كان الساحلي في «حالة عبور» في واحدةٍ من ولايات الاتحاد. هذه حالة ملحّة بالنسبة له ولشركائه. أمّا مدة غيابه عن العاصمة فهي مدّة تتبدّل بحسب الظروف. قد تصل أحيانًا إلى ستة أشهر؛ قضية صفقة ربما، وجوب التواري تفرضه الظروف بعد الحصول على معلومات قيّمة. اختار

الساحلي بشكل نهائي ارتداء السترة الشتوية والتي كان يملك منها عدّة سترات من لونٍ مختلفٍ.

كان يحصل له أيضًا أن يقصد «كوتونو» في «البينين» حيث يلتقي بأبناء بلده أعضاء «المؤسسة» ويقابل الحرفيين المتخصصين مثله في صناعة الحلي والمصاغ. في لقاءات العمل تلك، يعرض عليهم صفقات مثيرة للاهتمام وشرعية، فيثق هؤلاء به من زاوية الخبرة المهنية ويدفعون له مال العمولة بأمانة.

انتظر رجل الساحل في غرفة جانبية من النزل الذي حجز فيه مضيفوه وهو المعتاد على الانتظار الطويل، بعد ربع ساعة ظهر الرجل الذي قدّم له الدعوة، فتح له الباب وأشار عليه بالجلوس في مقعد وثير. بعد ذلك أخرج من جيبه رزمة مغلّفة بورقٍ بنفسجي اللون، وقدّمها له. أخذ الساحلي يحلّ أربطة الرزمة تمهيدًا لفتحها، ثم نزع نظارتيه ذات الزجاج الداكن وانحنى يبحلق في سبيكتي الذهب وشرع يضغط عليها بأصابعه؛ ثم يتحقق من وزنها، وهزّ رأسه علامة الرضى والموافقة:

ـ «أجل، تمام!»

أخبره الرجل المسؤول عن جلب الطعام أنّ في حوزتهم خمسة كيلوغرامات من المعدن الثمين وقدا أتوا به من مصدرٍ شرعي: قامت مصلحة الجمارك في واحدةٍ

من ولايات الاتحاد الفيدرالي بمزادٍ علني باعت خلاله بعض المقتنيات المضبوطة مع عصابات إجرامية كانت ناشطة خلال الحرب الأهلية، هكذا مزادات كانت شائعة من قبل الإدارات.

لم يحتج الساحلي إلى هكذا مرافعة حتى يقتنع، فأعاد السبيكتين إلى غلافهما الورقي ودسهما في جيببه. سيعود بعد ثلاثة أيام، بعد حلول الظلام بوقت طويل، ومعه أحد مواطنيه وهو صائغ أيضًا مثله، يعمل في خدمة رجل أعمال من «بينين»؛ وحينها ستتم الصفقة.

الفصل السادس

حالما ولج الساحلي الباب المفضي إلى خارج النزل بخطواته المتثاقلة ودَرَجَ نحو الشارع الموازي الذي يمتد نحو مرفأ «أبابا»، استوطن الصخب رأسه. كان الصخبُ غريبًا عن الضوضاء القادمة من كل مكان والمتصاعدة من المرفأ القريب. إنه تعاقب المشاريع، وتواصل العروض التي تشبه بشكل مريب عمليات قيد التنفيذ و«صفقات» قيد الإنجاز. وأيضًا كان غريبًا عليه هذا الصخب الذي يمتد إلى الجهات الأربع حاملًا معه العروض من كل نوع، والطعون الأكثر عمقًا، بدت نظارتيه بزجاجها الغامق وكأنها تحميه من أشعة الشمس ومن حركات وتكشيرات متحدّية يطلقها الباعة والوسطاء أيضًا.

كان يمشي مثل رجلٍ آلي في هذا المكان الذي يبدو له مألوفًا. وهو يعبر قرب بسطات باعة الأطعمة، والأجهزة الكهربائية وآلات التصوير المتطورة والمسجلات من الطراز الحديث، كانت تصل إلى أذنيه تحيات من نوع: «مرحى يا رجل الولوف!» تحدوها ابتسامات واسعة.

في الأيام العادية، يحصل له أن يتوقف أمام كل

بسطة، كما يحلو له أن يمازح البائع، يتأمل في جهاز ويساوم على سعر بخس. عندها يسخط البائع وينتهي الأمر بضحكة مفرقعة. هكذا يواصل الساحلي زيارته إلى شارع الباعة الذي يتكىء على سور الحماية الذي يلفّ مرفأ «أبابا». كان الضجيج يكمّ ما يقوله للباعة أو ما يقولونه له أمام بسطات المحترفين.

عندما تتمّ صفقة ما، يتبادل الرجلان مصافحات سريعة تختم المناقشات التي تطلبت بعض التفكير المليّ وتحدد مواعيد اللقاءات.

إنه عالم التجارة الذي تصفه الإدارة العامة بالدخيل على تقاليدها وشيمها. فالمبالغة تشمل كل شيء تقريبًا وتبدو أنها العلامة المميزة لهكذا نوع تجارة. بيد أن التكتم لا يغيب عن هذه المعاملات.

عندما بدأ الساحلي يمشي مشية الرجل الآلي ولا يرد على الدعابات الموجهة إليه، عرف كل من حوله ومن دون إذاعة الخبر أنه بصدد التحضير لعملية ذات باعٍ واسعٍ، لذلك لم يعد أحدٌ يجسرُ على مكالمته وذهب البعض إلى اعتباره غائبًا بشكلٍ كامل.

ها هو رجلنا وقد ابتعد عن مرفأ «أبابا» الصاخب. إنه يحثّ الخطى وكأنه يخشى الوصول متأخرًا إلى موعدٍ مهم. بيد أنه لم يكن ثمة موعد قد حدد مسبقًا. يبدو أن الضوضاء

في رأسه قد سكنت. أحسّ أن أجفانه فقدت ثقلها من تحت النظارات ذات الزجاج الغامق. بدا على الساحلي أنه مرتاح ولكنه أكثر حذرًا. إنه رجلٌ في صورة من عثر على ضالته. ولكن ما الذي عثر عليه؟

وباختصار كانت الصفقة مهمة. كان الساحلي بين الفينة والفينة يدخل يده في جيب سترته الشتوية ويضغط بأصابعه سبيكتي الذهب. فيشعر بإحساس الدعة وهو الخبير العليم بِكارِهِ. لأنه عشق مهنته كصائغٍ بحقّ. كان رفاقه يسافرون من مكان بعيد ليأتوا ويشاهدوه وهو يعمل على صنع فتائل الذهب.

صحيح أنه دخل عالم «الأعمال» التي تؤمن له المداخيل والأرباح الأسطورية والكسب السريع والخطر، بيد أنه لم ينقد أحلامه وموهبته الخلاّقة في فنّه الأصلي.

عندما سيصيب الثراء الواسع، سيعود بلا ريب إلى مسقط رأسه في «الساحل». وبواسطة علمه الواسع وخبرة السنين، سيعمل مثل مروّج ويقوم بتدريس الجيل الجديد ناقلًا إليه أسرار مهنته في مجال حياكة الأقمشة المقصّبة بخيوط الذهب والتي سيتاجر بها بالطريقة الشرعية.

لن يجسر أحد على إطلاع الجيل الجديد على سيرة حياته السابقة؛ والنكبات التي هي في أصل حياته «الملحمية» ومغامراته الممتدة وصولًا إلى بلاد الأنهار. كل

الروّاد في العالم يحلمون بالمغامرات ومطاردة الثروات في ظروف صعبة تحفّ بها الكمائن وشتى أنواع الحرمان في مناطق نائية عدائية. وأيضًا، إن أخطاء سنّ اليفاع تمحوها نجاحات نصيبها بعد ذلك.

عندما آثر الساحلي مغادرة بلاده، كان يصبو إلى هدفين: تحدي الإدارة وعصيان القانون. في تلك الفترة كان «ضحاياه» من الذين اختلسهم يودون لو يقع بيد السلطة ويدخل السجن. لكن متى عاد سيدًا محترمًا سيودّ الجميع الوصول إلى ترتيب معين معه وهكذا ستعود أواصر الصداقة ومعالم الثقة لتحكم العلاقة معه.

هذا هو الحلم الذي كان يراود ذلك الرجل الذي يتجول في شوارع «لاغوس».

كانت شرطة «لاغوس» والإدارة الفيدرالية تستهجنان بشدة أعمال هذا الرجل صاحب السترة الشتوية العتيقة والقبعة والنظارات بالرغم من الشهرة التي حصدها. كان ماكرًا وبارد الأعصاب «من معدنٍ جيد». كانت الشرطة تحذر منه، وهو من جهته يتمتع بموهبة محدودة، بيد أنها كانت تسمح له بالبقاء حيًا...

الفصل السابع

يعتبر كثيرون أن «الحظ هو دائمًا إلى جانب المحتالين». هذه الحقيقة تزرع الشك في قلوب الناس المستقيمين. في «تيوكير» أحد شوارع «داكار»؛ ساد الاعتقاد أن «الساحلي» يتمتع بحظٍ كبير لدرجة الوقاحة. فهو يصيب الجائزة الكبرى في سحب التومبولا، ويحصل على شهادات الشرف في المباريات الحرفيّة التي تجري بين صاغة المقاطعة وتسمح لهم بإظهار مواهبهم.

بيد أن هذا الحظ الذي يعتبر فائقًا للطبيعة لم يطح بعقله ويُصبه بنشوة. كان جواب الساحلي صريحًا للذين يطلقون عليه هذه الأحكام على شكل صفقة مليئة بالأحقاد؛ إنها وسيلة سحرية لطرد الأرواح النجسة المليئة بالحسد والأحقاد. وهو مدركٌ منذ زمن طويل أن اللسان هو سلاح قاتل أمضى من الخنجر وأسوأ من رصاص البنادق. عندما تتلازم العين الصائبة مع اللسان الجارح يصبح الخليط متفجرًا قادرًا على تدمير كل شيء وحالًا!.

وأيضًا فقد تلقى منذ نعومة أظفاره عددًا من الرقّيات ضد الحسد والعين الصائبة والحظ العاثر الذي يصدر منها.

وهو يتلوها في الصباح الباكر عندما ينهض من فراشه ويضع قدمه أرضًا ومساءً قبل النوم. كما أن صيته كصائغٍ خلّاق، جعله يتواصل تمامًا وبشكلٍ دائم مع مجموعة من الرجال السرّيين، يقول عنهم إنهم يمتلكون قدرات خارقة فائقة للطبيعة وهم يقدمون له عددًا هائلًا من الطلاسم، والحجارة ذات مقدرة سحرية للحماية توضع في مغطس الحمام قبل الاغتسال. وتقضي التعليمات أيضًا أن أول رشة ماء تبدأ من خلال نضح الصدغ الأيمن وصولًا إلى بنصر اليد اليمنى، فهذا هو سبيل المعرفة.

من الذي لا يذكر الشرّ المطير الذي قضى على حياة الأب «ماودو» المهنية؛ هذا الصائغ الذي تخطّت شهرته حدود «السينغال»؟ فقد قدم أحد الصاغة من الذين يدفعهم الحسد، ليس فقط لتعلم طريقة جديدة في فن صناعة فتائل الذهب بل لنزع شهرة «ماودو» وحرمانه منها أيضًا. ادّعى أنه قادم من «ماسينا»[1] وهو أحد أبناء صحابة «عمر ألوار»[2] الذين رافقوه في حملته من أجل الإسلام. استقبله الأب ماودو بحفاوة الأخوّة؛ وأسكنه في منزله مدّة ثلاثة أشهر وجعله فردًا من أسرته كما لقّنه أسرار مهنته بحذافيرها. بدا رجل «ماسينا» مهتمًا، وديعًا وأمينًا. غالبًا ما كان يظهر

(1) ماسينا: مقاطعة في جمهورية «مالي».

(2) «عمر ألوار» هو «عمر فوتويو تال» المعروف بالحج عمر. ولد بمدينة «ألوار» قرب مقاطعة بودور قرب منطقة «نهر السينغال».

متمسكنًا أمام معلمه ولا ينفك يعدّد مزايا العجوز ويشكره قائلًا إنه بمثابة قريبه الحبيب.

وعندما انتهت مدة إقامته، استأذن ضيفه الكريم وسافر إلى «ماسينا». حالما اجتاز القطار حدود «السينغال» حاملًا معه «المسافر» إلى بلده، بدأت يد الأب «ماودو» اليمنى تتورّم بعد أن أصيبت بخدشٍ جرّاء قرصةٍ خاطئةٍ من كمّاشة.

كان الصائغ العجوز معتادًا على هذا النوع من الخدوش، فغمس يده في الكحول بغية تطهيرها. في حينها بدا وكأن يده تعود إلى طبيعتها، لكن عند الساعة السابعة والنصف مساءً بعيد الصلاة، شعر الأب ماودو وكأن ثقلًا يعتري يده. ضمّد الخدش في اصبعه وحاول أن لا يفكر في الأمر مجددًا.

لكن في منتصف الليل وهو يتقلّبُ في سريره شعر أن كتفه تزداد خمولًا لتصل إلى حدّ الشلل التام. كان رجلًا صلبًا خَبِرَ الأوجاع فنهض من سريره وضغط بأصابع يده اليسرى على الكتف التي تنبث منها الأوجاع. عندما رفع الضمادة عن اصبعه لاحظ أن وهج الألم تفشّى في الذراع اليمنى كلّها. حاول عبثًا أن يحرك أصابعه التي تصلّبت تمامًا. لم يفقد الأب ماودو رباطة جأشه؛ بل لجأ إلى دهنٍ معطر، مرهمٌ مركّب من روح النعناع؛ مستورد خصيصًا من «غامبيا» وله ميزات شفائية لا تخيب، فغمر به الذراع العليلة.

في الواقع كان هذا العلاج يستعمل لدى الذين يعانون من شلل أو الذين يقعدهم مرض الروماتيزم ويطرحهم في أسرّتهم لا يقوون على الحراك؛ ويفيد أيضًا المريض الذي أصابته حمّى القش الاستوائية أو من كان يعاني من انسدادٍ رئوي مؤقت. إنه علاجٌ كامل شامل، دواءٌ معجزة. من مزايا هذا المرهم أنه يدفع المريض إلى التعرّق. لم يكتفِ الأب «ماودو» بدهن يده اليمنى، بل وضع قليلًا من المرهم على جبينه فتأكد مرة جديدة من نجاعة هذه المستحضرات. لقد استغرق في نومٍ عميق وكأن حملًا كبيرًا قد انزاح عنه. في اليوم التالي شعر أن كتفه أكثر خفّة، بيد أنه لم يلجأ إلى الوضوء كعادته قبل الصلاة وذلك بدافع الحذر، فاكتفى بالاغتسال الخفيف.

شعر أن يده منتفخة تحت الضمادة، لكن الوخز الذي أصابه في اليوم السابق توقف. نزع الضمادة فتراءى له شيءٌ مثل الكرة يستوطن راحة يده. أما الخدش فكان قد شفي تقريبًا. امتدّ الورم من سُلاميّات الأصابع لكنه تمركز جدّيًا في راحة يده. لم يعد باستطاعة الأب ماودو إغلاق يده. هكذا صار لديه وضع جديد لكنه غير مصحوب بألم، وكأنه يكرس نوعًا من العلّة القديمة. أظهرت صور الأشعة السينية لليد المصابة أن ثمة ورمًا شحميًا بين الجلد والدم يصعب تحديده ولونه يستحيل أن يعرف. بدأ الآن يحرّك أصابعه، لكن يصعب عليه ثنيها نحو الراحة.

بدأ المقربون من الأب «ماودو» يقلقون. وقام هذا الأخير بعدة زيارات استشفائية. كان يعود من زياراته إلى القرى المجاورة ومعه في كل مرة وصفة مختلفة، يحرص شخصيًا على إعداد المكونات والعلاجات، كما يشرف على كمية طحين الجذور التي تُستعمل في إعداد الأدوية.

لكن الورم راوح مكانه، بدأت أوساط الصاغة تشعر بالقلق. سرت شائعات من كل مناطق الرأس الأخضر ووصلت إلى عمق البلاد. كانت مسألة «اليد الميتة» على كل شفة ولسان، مصيبة الأب «ماودو» شيخ الصاغة في المنطقة برمّتها. توافق الجميع على اعتبار أن هذه المسألة سببها سحرٌ مشؤوم: لسانٌ حاسدٌ وعينٌ صائبة يتلازمان. لذلك أخفق الطب الحديث واصطدم بجدار التقاليد الراسخة بقوة في تلك المنطقة.

كان الأب «ماودو» مقتنعًا أن الشلل الذي أصاب أصابع يده اليمنى ليس له أي تفسير طبي؛ والحال كذلك لن يشفيه أي علاج مهما كان متقدمًا. بيد أنه واظب على دهن الورم بخليط مصنوع من الحنّاء ومسحوق بعض الجذور بغية تنشيط الدورة الدموية وتاليًا طرد الدماء المتخثرة وتجديد الأنسجة.

وجد أن هذا العلاج ملائمًا فلن يعزى إليه تحسنًا فوريًا ولا مدّة معينة زمنيًا فلم يكن أحد يشكّ بقوة مفعوله.

حان الوقت ليتوقف شيخ الصاغة عن مزاولة المهنة، هناك من سيرثه وسيقوم بتلقين أسرار فنّه للجيل الجديد من الصاغة.

كان الساحلي صاحب السترة الشتوية والقبعة الرسمية العتيقة والنظارات الداكنة؛ قد حفظ عن ظهر قلب قصة الأب «ماودو»، فقرر التزام الحرص والحذر الشديدين.

الفصل الثامن

بما أن خواتيم الأشياء تقضي بأن تعود الرواية إلى مكانها المعتاد في خضم الأسطورة؛ لماذا لا نعيد الساحلي إلى الأساس الذي دفع به نحو النفي ومغادرة السينغال.

العارفون يتلون روايات حول بعض الأحداث التي تأخذ طابع الحكاية مثل حكاية سفينة الشحن التائهة والتي كانت السبب في إفلاس الساحلي.

منذ زمن بعيد وفناري «ماميل» ورأس «مانويل» يلقيان بنور كشّافاتهما على الأطلنتي في المساحة التي تكوّن شبه الجزيرة البازالتية والغرانيتية التي انبثقت منها العاصمة «داكار».

ومنذ الأبد تتبادل البواخر وسفن الشحن الإشارات الضوئية الصديقة مع ذينك الفنارين: الجدّي والفخم اللذين يشبهان جلاميد منحوتة قُدّت من الغرانيت والبازالت، وعلى قاعدتيهما وبعمق عدة أمتار، تشتد الأنواء وتصخب آتية من الأطلنتي بيد أنها تبدو خَبَبًا أمام جبروتهما، إنها تتشتت بالرغم من صوت الهدير الذي ينتقل من البحر مع الرياح إلى الحيّ التجاري في المدينة.

الشائعات! هل توجد مدينة في العالم تخلو من حصتها من الشائعات اليومية؟ تبدأ الشائعات في الأحياء المتناثرة في الضواحي وعند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، تصل إلى الساحة العامة في السوق المركزي وقد سبقتها شائعات لامدينا، داكار و«الهضبة».

أمّا مروّجو الشائعات فهم يعملون بشكل حثيث، تقف السابلة هنيهة قربهم فتتزوّد بما يشنف آذانها وتعود إلى طريقها. وهي بدورها تعيد تلاوة ما سمعت كلما التقت بأحد على صوت الضجيج والتعليقات الغريبة المتقطعة والمغلّفة بجلباب من السريّة. في هذه الأثناء يحاول المستمعون تفكيك طلاسم ما سمعوه وقد اعتادوا هذا النوع من الأحاجي؛ ثم يعمدون إلى الاقتباس والاختصار ليعودوا بدورهم إلى ذرّ الشائعات في كل اتجاه.

في صباح يوم السبت، سرت شائعة غريبة، أخذ الشيوخ من الذين سبق لهم أن خاضوا غمار البحر؛ يستعيدون ذكرياتهم. أما الذين تعاملوا بداية مع غرف التجارة الأوروبية منذ بداية القرن (المقصود هنا بداية القرن العشرين) فلم يسبق لهم أن خبروا حدثًا مماثلًا مع ذلك الذي تتناقله الشائعات اليوم في معظم الأحياء. حتى المكاتب الحكومية حيث جرت العادة أن تقرأ الجريدة الرسمية بعناية، لم تَرصُدْ مداخلةً قانونيةً مماثلة لهذه القضية.

كل من في البلد يتناول مسألة «القضية» ويمتنع عن شرحها أو حتى تقديمها؛ وكأن من في البلد تعاقدوا على التكتم حول الموضوع، جلّ ما نسمعه هو كلمة «القضية».

في عجالة التعليقات، يشار بالبنان إلى حيث هو المرفأ التجاري، حيث ينتصب فنارا «ماميل» ورأس «مانويل». ويحصل أحيانًا أن يحاول أحدهم محاكاة عملية بحث عن آثار بواسطة أشعة مصباح كهربائي يدوي.

ولكن عمّ نبحث بطريقة محمومة للغاية، حيث يرتبط اسم الفنارين بحياة الصخب في الأحياء الداخلية؟ عادة ما تخترق الشائعات أحياء المدينة بسرعة فائقة. مدة الشائعة بضع ساعات ثم ترثها شائعة أخرى وهكذا دواليك.

بيد أن الشائعة التي تسيّدت على الأجواء في يوم السبت ذاك بدت أنها تعود إلى ثلاثة أيام خلت، في غضون هذه المدّة؛ أخذت الشائعة شكلها ونبتت تفرّعاتها، كما عبرت مجدّة كل أحياء المدينة وصولًا إلى الضواحي. ترك كل شارع خِتْمَهُ في جسدها، وها قد أقبلت إلى حياض الساحة العامة بدون تشريفات:

«سفينة محمّلة أرزًا للاستهلاك المحلي تاهت في الأطلنتي».

أخذ واحدٌ من قدامى البحارة يشرح: «لم تغرق السفينة بأكملها كما يحصل خلال عاصفة»؛ وهو جالس في

مركزه قرب الساحة وقد تحلّق حوله عددٌ كبير من الفضوليين، بودّهم أن يعلموا يقينًا؛ كيف لسفينة في عصرنا الحديث أن تضيع عن مسارها! أخذ القبطان العجوز يثير فضول مستمعيه وهو يقصّ عليهم تفاصيل المغامرات التي خاضها والمخاطر التي نجا منها بفعل أعجوبة وأيضًا بسبب مهارته في حسن قيادة السفينة إلى برّ الأمان.

كان يضيف إلى عباراته بعض الحركات اليدوية وكأنه يُمسك دفّة وهمية يوجّه بها السفينة نحو الميمنة تارةً وأخرى نحو الميسرة. كان البعض من أصحاب المشاعر المرهَفَة؛ يغادرون الساحة وقد اعتراهم شيء من قوة الملحمة وفي ذهنهم صورٌ وذكريات بحرية مضافةً إلى إعجابٍ بهذا البحار الذي حُرِم من عالمه اليومي.

ثم لا يلبث البحّار العنيف أن يقطع روايته بهتافات وكلمات ساخطة تُعيد المستمعين إلى الواقع:

- دعوني أضحك! سفينة تائهة؟ لم أسمع بهذا الأمر من قبل.. هناك احتمالان لا ثالث لهما: إما أن السفينة لم تبارح مرساها، أو إنها ضاعت يعني غرقت.

في مكانٍ آخر؛ بعيدًا عن مكان لقاء البحارة حيث كان العجوز يتلو رواياته على مسامع أصحاب الشائعات؛ بدأت مجموعات أخرى تتحلق قرب السوق. كانت الأحاديث تتناقل من متجرٍ إلى آخر وتنقل معها حكايات

أسطورية تتناول الجنّ القاطن في أعماق البحار، وغضب الله، والقدر.

ـ «ربما كان هذا الأرزّ دنسًا. لم يعمد من زرعه ومن حصده إلى طقوس الطهارة الإلزامية! لم يطلبوا شفاعة الأرواح التي تحرس المكان! فما كان من هذه الأرواح سوى أن تعمد إلى إعطاب أجهزة السفينة وإصابة القبطان وملاحيه ببلاء العمى. لا بدّ أن السفينة الآن في أعماق الأطلنتي وقد قدّمت ذبيحة».

هذه الرواية مصدرها مجموعة كانت تتنقل أمام بسطات البضاعة. بيد أن صوت الملاح العجوز فاق جميع الأصوات الباقية. تخطت كلماته مركز تجمع البحارة لتصل إلى متاجر السوق المركزي. ها أن صوته يطغى على صوت الأساطير.

لقد صارت حجته أقوى عندما تخلّى عن رواية الحوادث الخطرة التي نجا منها. بدأ الكل ومن الجهات الأربع يفقهون ما يقوله: « نحن نعيش في عصر الرادارات العملاقة! لا يمكن لسفينة أن تضيع في رحاب المحيط الأطلنتي! في جميع الأحوال».

تغادر السفينة مرساها والجو ملائم. في حال حصول متاعب، تستطيع السفينة طلب النجدة. في حال غرقت تكون السفينة قد حددت موقعها بالراديو قبل حصول الفاجعة!

وبما أن المحيط الأطلنتي يعجّ بالسفن من كلّ نوع لا بدّ وأن نجد من يدلّنا على حُسن اختيار مسارنا. صدقوني أنا البحار العجوز الخبير!».

تحوّل صوته إلى صوتٍ مُبكّتٍ، صوت يتسلل إلى الأسماع ويثابر ليصبح مقنعًا. ها قد انتقل إلى ضفاف السوق المحاذي. توًا نحو «المادينا»، داكار و«الهضبة»، وصولًا إلى «بيكين»[1] في الضواحي.

«لا بدّ وأن سفينة الأرزّ قد تاهت في عرض البحر. لكنّ المحيط الأطلنتي يعجّ بالسفن من كل حدبٍ وصوب. وتقوم الرادارات بمسح المحيط من كل الجهات بالطول والعرض، ولديها القوة لخرق السفينة حتى محركاتها».

في النهاية فهم سكان المدينة ما حصل وما كانت المكاتب التجارية تحاول طمسه. فهموا منطقيًا. هذا المنطق الذي يبدّلونه، يحوّلونه، يضخّمونه ثم يضعونه قيد التصنيف في خزائن متاحف ذاكرتهم. وبعد ذلك سيخرجون هذه الواقعة من خزانة الذاكرة في حال حصلت حادثة مماثلة لمجرّد حب المقارنة مع الرمز الموجود بين العاديات. سيسخرون من هذا الحدث كما يسخرون عادة من كل ما يصادفونه في حياتهم اليومية.

لا زالوا حتى الآن يسخرون من الخبر، هذا الخبر

---

(1) اسم منطقة في ضواحي داكار وليس العاصمة الصينية.

الصادح في الشكل والفارغ من محتواه من حيث المضمون: «سفينة محمّلة بالأرزّ المعد للاستهلاك تضيع في المحيط الأطلنتي».

اختفاء السفينة حدثٌ مخيّب للرجال الذين حصلوا على إذن المتاجرة بالأرزّ وقد جهدوا بالفعل للحصول على هذه الورقة. قام بعض التجار بمساعدة هؤلاء لقاء مبلغٍ كبير قد يساوي ثمن الحمولة برمّتها بعد إفراغ السفينة.

أصابت الحادثة «الساحلي» بإحباط كبير لأنه توقع أن يقوم ببعض الاحتيالات ليتهرّب من عواقب مسألة احتيال بدأت تفوح رائحتها النتنة.

من كان ليتنبأ أن سفينة تحتوي على حمولة كبيرة من الأرزّ، تائهة في مياه المحيط الأطلنتي ستؤدي إلى فرار سريع نحو الأمام، بطله معلم صائغ عتيق، ليصبح فيما بعد الرجل المعروف بالساحلي من «لاغوس» صاحب السترة الشتوية المشهورة والقبعة الرسمية القديمة والنظارات ذات العدسات الداكنة؟...

الفصل التاسع

ثمة عبارة يقولها المتقدمون في السنّ عندما يلعنون: «هنالك ربٌّ ديّان يدين حتى الحثالة». هذا الكلام يُقال عندما يكون أحد الشبان من الجيل الجديد يظهر قلّة الحماسة، الفتور والتبلّد بالإضافة إلى الجُبن خلال عمله!... وكم من مرة لعنت «ساغار لو» و«بيندا سيسي» رجلنا المعروف بساحلي «لاغوس»، الذي كان يقبل بما يقال له «على مضض» إذا صحّ التعبير، كما أنّه لم يبدُ عليه مطلقًا أنه معني بمحتوى هذه اللعنات. أو ربما لم تكن اللعنة كافية كما بجودة المتقدمين بالسنّ لأن «ساغار لو» و«بيندا سيسي» صغيرتا السنّ وبارعتا الجمال، كانتا تتمتعان بنشاط كبير، تبيعان الحلي المصنوعة بفتائل الذهب في «ساحل العاج» و«زائير» كما تبيعان نسيج «الواكس»[1] ذي النوعية العالية في «مالي» وفي «بينين».

كانتا منذ فترة غير بعيدة؛ في عداد مجموعة التجّار التي تتحكم بجزءٍ لا يُستهان به من تجارة مستحضرات

(1) واكس: نسيج قطني مصنّع في هولندا في الأساس ثم بدأ يُصنع في السينغال.

التجميل والمجوهرات المستوردة من ميلانو وبيروت. ثم قررتا ولوج السوق النيجيري، في محاولة للفت انتباه نساء قبائل «اليوروبا» إلى الجواهر المصنوعة في «السينغال». كما أنهما تدركان مليًا كم أن نسيج «الواكس» المصنوع في السينغال يلقى رواجًا في بلاد الأنهار.

كانت الأحلام تراود «ساغار لو» و«بيندا سيسي» بغزو السوق في السينغال وإغراق المتاجر بالمنتجات النيجيرية التي تماثل في جودتها المنتجات المصنوعة في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا العظمى. ما كان يمنح الشابتين قدرة فائقة في تحقيق حلمهما هو إجادتهما إجادة تامة للغة الإنجليزية. تلقنت «بيندا سيسي» مبادىء اللغة الإنجليزية في مدرسة «غامبي» الإنجليزية حيث أتمت المرحلة الثانوية بالإضافة إلى أصولها العائلية، بينما اكتسبت «ساغار لو» مبادىء اللغة الإنجليزية الأساسية في معترك الحياة، وهي بالإضافة إلى اللغة الكلاسيكية تجيد المحادثة بها بحسب اللهجات المحلية المتنوعة بتفرّعاتها الممتدة من الساحل الغربي لأفريقيا أي من «بانجول»[1] وصولًا إلى «لاغوس».

وصلت الفتاتان إلى النجاح الباهر في أول إقامة لهما في نيجيريا، ومن دون مقدمات دخل الساحلي معهما في مجال التجارة؛ إذ كان يرافقهما من المرفأ البحري إلى

(1) بانجول: عاصمة غامبيا.

شركات الطيران، وإلى المصارف لاستبدال «فرنكات» الاتحاد الأفريقي بعملة «النايرا»، كما يقوم بتقديمهما إلى بعض كبار موظفي الشرطة ويعرّفهما على تجار يتعاملون بالبضاعة التي تملكانها؛ بالإضافة إلى اشتراكه في عمليات عقد الصفقات. خلال عملية عقد الصفقة كان يدافع بحماس شديد عن مصالح «شقيقتيه». غالبًا ما كان العميل النيجيري يتفاجأ بمبادرة الساحلي لكنه لا يلبث أن يشعر بالمرح وينتهي به المطاف إلى عقد الصفقة وهو على بيّنة من الربح الذي سيصيبه.

وأكثر من ذلك فقد نجح الساحلي في إقناع الشابتين في مبارحة غرفة الفندق التي تتشاطرانها، والإقامة معه. ساهمت زوجته في إقناعهما وحجّتها أن الوحدة التي تعاني منها منذ قدومها وزوجها إلى بلاد الأنهار قد أرّقتها.

في النهاية اقتنعت التاجرتان بفكرة الإقامة في منزل لا تشعران فيه بالغربة. كانت زوجة الساحلي تعرف المدينة جيدًا، كما تعرف الأماكن حيث الحاجيات تُباع بسعرٍ أرخص؛ والشوارع حيث لا يجب الدخول بتاتًا.

وبسبب مبادرة الساحلي وزوجته تمكنت «بيندا سيسي» و«ساغار لو» من التعرّف على «لاغوس» عن كثب وأيضًا بيع البضائع بأسعارٍ غير متوقّعة. أخذتا تستوردان مستحضرات التجميل وأحذية نسائية من الطراز الحديث،

كما باعتا في السوق الشعر المستعار طراز «أفرو»[1] وطراز أوروبي، وكميات أخرى من البضائع المتنوعة قيّض لهما بيعها في تلك البلاد في وقتٍ سريع.

وبطبيعة الحال لم تتورع الفتاتان عن إظهار امتنانهما للساحلي وزوجته، فلم يعف ساحلي «لاغوس» عن قبض مكافآته كما أنه أظهر الناحية العاطفية من علاقته مع فتاتين من بلاده تتمتعان بمركزٍ مرموق للغاية.

أصرّ عليهما متى نزلتا البلاد في المرة المقبلة أن لا تقيما إلّا في بيته، مجدِّدًا لهما استعداده الدائم للمساعدة والمواكبة بكل ما أوتي من عاطفة وتحبب؛ ولو أن منزله في ضاحية سوروليري يعدّ بين المنازل المتواضعة جدًا.

قام الساحلي وزوجته ورافقا التاجرتين إلى مطار «إيكيجا» حيث كان الوداع مؤثرًا للغاية بينهم. وعندما اقتربت الطائرة من طرف مدرج الإقلاع استعدادًا للمبارحة، كان الساحلي وزوجته يفترقان، ليذهب كل واحدٍ في اتجاه، قاصدين الوسطاء والتجار من أجل قبض العمولة لقاء الصفقات على بضاعة التاجرتين السينغاليتين، بينما المنتجات تبحر بتؤدة نحو «داكار» و«بانجول».

(1) أفرو: كناية عن شعر مستعار كثّ ومجعّد يحاكي شعر ممثلي حقبة الستينات الزنوج.

الفصل العاشر

بحلول الرحلة الرابعة إلى «لاغوس» كانت «ساغار لو» و«بيندا سيسي» لا تحلفان سوى باسم الساحلي وزوجته؛ اللذين حضرا إلى المطار لاستقبالهما وقاما بالمعاملات اللازمة مع الشرطة ومكتب الجمارك. وبسرعة تمّ سحب البضائع المستوردة وإبلاغ الزبائن المعتادين. فرحت الشابتان بلقاء الساحلي وزوجته وهما على استعداد دائم لمدّ يد المساعدة لهما فهما بمثابة الأهل لا يفترقا عنهما. قامت «ساغار لو» و«بيندا سيسي» بمضاعفة شحنة البضائع لهذه الرحلة الرابعة وذلك بحسب رغبة التجار الذين صاروا أصدقاء لهما أكثر من مجرد عملاء؛ يأتون بمجموعات صغيرة لزيارة التاجرتين.

تطورت العلاقة لتصل إلى حدّ دعوتهما إلى حفلات ساهرة. فتغتنم الشابتان الفرصة لارتداء الحلل والمجوهرات الثمينة الفاخرة، فرصة حميدة لعرض صفوة الانتاج السينغالي وما توصل إليه فن الصياغة في ذلك البلد من إبداع. كان المضيف ومدعووه يعربون صراحةً عن مدى إعجابهم واهتمامهم الكلي بما يشاهدونه من لباسٍ ومصاغٍ مصنوعٍ في «الساحل».

لم يكن الرجال بغائبين عن سحر الألوان الدافئة التي تبثّها سفيرتا عالم التجارة. لذلك كانت المحاولات الغرامية للتقرب منهما أمرًا محتومًا؛ يتنبأ بها الساحلي وزوجته ويشجعان عليها من خلال ترتيب الأجواء الملائمة لها. كانت «ساغار لو» و«بيندا سيسي» تتمتعان بجمال كاسح وسحر قوي وهما تدركان مدى جاذبيتهما وهما بأنوثتهما الجارحة القوية وغوايتهما..... متحررتان من كل القيود. بيد أنهما تعرفان كيف تتحصنان، فقد سافرتا إلى عدد كبير من البلدان، وتعلمان علم اليقين كم أن هذه الرحلات تحمل في طيّاتها مشاعر مُسكِرة، وغوايات ونوازع نحو التفلّت وسهولة العلاقات وكيف تكون مظاهر الحريّة خادعة في الأصل وتتحول إلى مكائدِ بالغة الخطورة.

ولأن «ساغار لو» و«بيندا سيسي» يكنّان احترامًا بالغًا لمضيفهما وزوجته؛ وافقتا على استقبال بعض الزوار في بيت الساحلي، كانتا قد تعرفتا عليهما في الحفلة الساهرة. بدأت السيارات الفخمة تحتشد في الزقاق المؤدي إلى بيت الساحلي، ثم أخذ رجال ضخام الجثة يترجلّون من السيارات؛ فيستقبلهم الساحلي بحفاوة ويمازحهم قبل أن يدخلهم إلى صحن داره. يدخل الزائرون الجدد فيخرج من سبقوهم لأن البيت المؤلف من غرفتين يضيق بهم. جلست الشابتان المضيفتان بكامل أناقتهما وروعتهما على مقعد وثير تبتسمان مثل شقيقتين توأم. جلس الضيوف على مقاعدِ

مخصصة لهم. دار الخادم على الحضور بصينية عليها أكواب البيرة و«الجين تونيك» و«الكوكا كولا» أو «الويسكي» وشراب «الفانتا». وبين الحين والآخر تنهض إحداهن وتلج إلى غرفة صغيرة عابرة إليها من أحد الأبواب، لتخرج بعد هنيهة وهي تلبس حلة أخرى وتتزيّن بطقم آخر من الحلي. تدخل متباطئة وكأنها تزين خطواتها في الصالة، تدّعي أنها غير عابئة بما يحصل من حولها بيد أنها تعلم يقينًا بوعيها مدى التأثير الذي تصيب به الرجال. هؤلاء الرجال من «أصحاب الشأن الرفيع» الذين لا يلبثون أن يعتدلوا في جلستهم ويلتهموا العارضة بنظراتهم النهمة. يحاول كل واحدٍ أن يسرق منها نظرة أو ابتسامة تكون له. له وحده. تمرّ الساعات على هذا المنوال وموسيقى ناعمة تواكب السهرة يبثها جهاز ستيريو. يواصل الساحلي مهمة الاستقبال والتوديع مع القادمين الجدد والمغادرين وينتهز الفرصة ليسأل الشابتين ما إذا كانت الأمور تسير بحسب رغبتهما، متكلمًا بلغتهما الأم: «الولوف»؛ فتجيبانه أن نعم، فيغادر مرتاحًا وهو يواصل التخطيط لمشاريعه الجهنمية التي يعرف وحده أسرارها الدفينة، هكذا تمرّ السهرة. لم تكن هذه اللقاءات العذرية لترق لبعض الزوار، فغالبًا ما كانت الشابتان تتلقيان الدعوات لزيارة «عبدان» و«بينين» حيث يطلب أصحاب السيارات الفخمة منهما قضاء عدّة أيام. تردّ عليهم «ساغار لو» و«بيندا سيسي» بالرفض

محتجتان بأعمالهما التجارية الملحة. يعمد البعض إلى دعوتهما في حضور الساحلي مطالبينه بإقناع الشابتين؛ فيكتفي هو بالابتسام، لأن مشروعه الخفي في طور التنفيذ.

ذات مساء، بعد مغادرة الضيف الأخير المنزل، أعلن الساحلي وزوجته للشابتين عن وصول صديقين حميمين للزوجين إلى «لاغوس». أحدهما رجل بالغ الثراء من إحدى دول الفيدرالية؛ يمتلك باعًا طويلًا في مجال تجارة الكاكاو والموز ويسيطر على عددٍ كبيرٍ من المصانع؛ تخطت سلطته حدود البلاد وتهابه الحكومة الفيدرالية وتقدّره تقديرًا بالغًا، زد على ذلك أنه يتمتع بشخصية غير معقدة وسخي إلى أبعد حدود. وما يدهش مع كل هذه الصفات المليحة أنه بهيّ الطلعة جميل الوجه.

ـ أنا متأكدة ـ ، قالت زوجة الساحلي ـ ، أنه سيكون على أتمّ وئام مع «بيندا».

ثم نظرت إلى «ساغار» ونبست:

ـ «يا عزيزتي، إن الذي أدبّره لك، ليس ثريًا فحسب بل يمتلك موهبة خارقة... ...».

أمام الانتباه الجدّي من قبل الفتاتين، تساءلت زوجة الساحلي عن مدى صحة ما ينقله إليها الرواة المشكوك بأمرهم.

ـ قالت لها «ساغار»: موهبة خارقة؟ ما هي الموهبة

التي من الممكن أن نملكها في عصرنا هذا حيث انتفى مفعول الدهشة؟ هل يحول صديقك الإنسان إلى حيوان؟ والحجر إلى معدن؟

ـ كلا! أجابت زوجة الساحلي، إنه ابن الإنسان وابن اللّه. بيد أنه يختار من يظهر له موهبته. يراقب مطولًا محدّثه ويمتحنه امتحانًا عسيرًا. يبحث عن بعض الصفات لدى شركائه.. إنه رجل ساحر متى منحك صداقته!

تحيّرت الشابتان، أرادتا معرفة المزيج. قيل لهما إن بلاد الأنهار مليئة بالمفاجات والأسرار، لقد ذهلتا، التجارة تسير بشكل حسن، فلم تحرزا مثل هذه الأرباح من قبل وصارت الإقامة في «لاغوس» تماثل الإقامة في «داكار» وفي «بانجول»؛ وكل ذلك من خير هذا الساحلي وزوجته. هذا هو الحق الطبيعي والتدبير الإلهي، ستبقيان ممتنتين لهما طالما بقيتا في قيد عالم الأحياء!.

الفصل الحادي عشر

في صباح اليوم التالي، جلست «ساغار لو» و«بيندا سيسي» بهندامٍ عادي، على مقاعدٍ معدّة مسبقًا تحت رسم شجرة وارفة، انضمت زوجة الساحلي إلى مجلسهما. كان سبق لها أن استفاقت في وقتٍ مبكرٍ وذهبت إلى السوق وعادت بما يلزم لإعداد الطعام للضيوف الكرام، ستطهو طبقًا سينغاليًا وطنيًا بالأرز والسمك يسموّنه هنا في لاغوس: «أرزّ الولوف».

وصل الضيوف عند الواحدة، بعد التعارف جلس الرجلان قرب الفتاتين. انهمكت زوجة الساحلي في عملية تقديم المرطبات لهما بينما انبرى الساحلي يحدثهما بصوتٍ خافتٍ بيد أنه ما لبث أن استأذن من الشابتين ودخل مع أحد التجّار إلى غرفته. أما الضيف فكان متوسط الطول، نحيل الوجه، عادي الملامح. كان صوته رخيمًا متحفظًا ولديه معرفة في فن المحادثة إذ يعرف كيف يتلفظ بكلمات مغوية تذيب قلوب النساء! كان في حديثه شيء من القدسية التي تدعو عمومًا إلى الاطمئنان، أيقظت شيئًا ما في قلب «ساغار لو»...

عاشت هذه الشابة في طفولتها في عائلة من الأشراف

ورجال الدين كما عهدناهم في بلدٍ مثل السينغال حيث الحركات مقننة إلى حدّ التقشف؛ والنظرات عفيفة وعميقة. لا حاجة في مثل هذا الجو إلى الكلام. وحدها العيون تتكلم. تُعطى الأوامر وتنفّذ بدون جلبة بالكاد نسمعها.

كان الرجل الذي اخترق خيال «ساغار لو» من ثقافة مماثلة للثقافة التي عرفتها في طفولتها دون أدنى ريب. أو لم يأتِ من «بونانت» من بلد الاتحاد حيث التقاليد تحاكي تلك التي في بلاد «الساحل»؟. لكن هذه التقاليد عينها هي التي لقنت «ساغار لو» لزوميات الحيطة والحذر الشديدين... غالبًا ما كانت والدتها تشدد على وجوب التحفظ في العلاقات بين الأولاد بناتٍ وصبيانًا من أبناء تلك العائلات الراقية. يُترجم السلوك المتبع في هذا الوسط من خلال كبت النفس. لم يمنع الشبّان عن التعبير عن مشاعرهم، لكن عليهم تمريرها في قالب معين حتى لا تفسر بالطريقة الغلط؛ كل شيء يزيد عن حدّه يصبح مؤذيًا. وباختصار نحن قبل كل شيء كائنات بشرية! هدف كل ما نتعلمه من أنظمة وقوانين أن يصبح الإنسان هو نفسه «معيارًا لكلّ أمرٍ».

بات من المستحسن المحافظة على حدودٍ معينة. فالمغريات من كل نوع التي دخلت عالمنا يساندها عالم المال، والعنجهيات الزائفة، والسهولة في التعاطي أصبحت اليوم أساسًا للمجتمع. والجهد مهيمن في كل آن. إنها

الحاجة المستمرة التي تدفع بالعالم إلى الاستكشاف. فلماذا لا يوصل الإنسان الذي يرغب بالعدالة إلى نمط حياة متزن؟ عالم غير متناخرٍ، ولا مكتفٍ اقتصاديًا، عالم ليس بجامحٍ ولا مستعبد.

ذهبت «ساغار لو» إلى البعيد بتفكيرها؛ فقدت تركيزها على المحادثة التي دارت بين «بيندا سيسي» والرجل الآخر. لو أنها نظرت إلى وجه هذا الأخير، لكانت أحبت صلابته وشاربه الخفيف الذي يشبه هالة تتواصل مع أنفه المستقيم. أحبت أسنانه النظيفة اللّماعة، ولون عينيه الذي يشبه اللون الرمادي الذي يميّز الأنهر بعد هطول المطر الغزير. أحبت لا ريب في ذلك أن تقيس أصابعها مع أصابع يديه القوية والناعمة في آن.

انبهرت «بيندا سيسي» بكل هذه التفاصيل؛ شعر الزائر بما أحسّت به فبذل جهدًا كبيرًا في محاولة إغوائها. انبرى يتحدث مطوّلًا عن أسفاره المتواصلة إلى أوروبا؛ ويحاول العثور على نقاط مشتركة بينه وبين محدثته من خلال أحكامها وآرائها حول البلاد التي زارتها. أفرز هذا الحديث نوعًا من الإعجاب المتبادل. أمّا الرجل الذي لاحظ «شرود» «ساغار لو» فقد بذل جهده ليعيدها إلى حواراتها. بدا عليها وكأنها عادت من رحلة إلى رحاب الأحلام؛ بيد أنها بذلت جهدها حتى لا يظهر عليها شيءٌ من ذلك. عاودت اهتمامها بالحديث بيد أن أفكارها رحلت إلى مكانٍ آخر.

بعد أن أنهى الساحلي مراجعة حساباته مع ضيفه في الغرفة الأخرى، بدأ يجيب على الأسئلة التي أخذ يطرحها الرجل حول الشابتين الباهرتين. لقد أُخذ بجمال «ساغار لو عنوة». هل لديه أدنى فرصة حتى تنجذب له؟ قام الساحلي بتشجيعه. فاحت رائحة السمك في كل أرجاء المنزل ومصدرها المطبخ. عرف الذّواقة أنهم على وشك تناول السمك بالأرزّ الممتاز.

عندما عاد الساحلي ورفيقه إلى الصالة كانت المحادثات قد وصلت إلى ذروتها تقطعها الضحكات. بدا وكأن الأشخاص الذين يتحادثون يعرفون بعضهم منذ الأبد. قصّ عليهم ربّ المنزل روايات ممتعة بإحكام رائع، بدا على رفيقه القادم من بلاد «البونانت» أنه يستمتع بحكاياته ويضحك من كل قلبه.. وهو يسترسل في ضحكه، تلتقي نظراته بنظرات «ساغار لو»؛ بدأت علاقة ما تربطهما!. تخلّى الرجل المتحفظ عن تحفظه عندما بدأ يحادث الساحلي وصديقه. ساد جوّ من الفرح وتناول الجميع الطعام في حالة عارمة من السرور والدعة.

في فترة بعد الظهر؛ اقترح الزائران دعوة مضيفيهم إلى حفلة ساهرة لا يسعهما أن يمتنعا عن حضورها. أخذ الساحلي على عاتقه مهمة إقناع الشابتين بوجوب قبول تلك الدعوة التي ستسمح لهما بمعرفة «لاغوس» عن كثب.

بدا عليهما التردد الشديد، وأخذتا تتحجحان بأنهما تعبتان، لكن في نهاية الأمر أسقط في يدهما وقبلتا أمام إصرار الجميع على قبول الدعوة.

توارت «ساغار لو» و«بيندا سيسي» لتبديل ملابسهما واستمر الرجال في تبادل الحديث.

الفصل الثاني عشر

استغرقت الشابتان ساعة واحدة على الأقل لتبديل ملابسهما. ظهرتا أمام الرجال بحلّة رائعة؛ فما كان من الحاضرين سوى أن يصفقوا بالأيدي وعلت الصيحات. كانت الشابتان رائعتان. والمصاغ يتلاءم تمامًا مع جمالهما الطبيعي. إنه تحالف بين عدة عناصر: لون البشرة، ألوان الثياب، تناسق اللباس، كمال الشكل وكأن الطبيعة وحدها تقدر على جمع كل هذه المعطيات. كل هذا يتلاءم وينطبق مع المظهر الذي حافظتا عليه: مظهر الحضور والإبهار في آن. كل هذا بسهولة طبيعية. وكأنهما أتتا إلى العالم لتشهدا على الجمال القادم من زمنٍ أبدي يتحدّى الذاكرة!..

اتجهت المجموعة نحو السيارة الفخمة المركونة في الخارج؛ وكانت قد غُسلت بعناية بالغة في الصباح. عرّجوا بداية على الحفلة الساهرة التي أقيمت في منتجع «ماريلاند إيستيت» في «إيكيا». نخبة مختارة من القوم تصل إلى حدّ الابتذال والفوقية المتعجرفة. كان المنزل الذي فتح أبوابه لاستقبالهم يعود لرجل الأعمال «سام شونيبار» وهو رجل أعمال محنّك وقائد سابق لمنظمة التحرير الاستقلالية والتي لم يعد لها وجود الآن.

كانت الغرف واسعة، منسّقة بشكلٍ جيد وتفضي إلى فناءٍ مفروشٍ بنجيلة خضراء مشذّبة على الطراز الإنجليزي. صُفّت على هذه السجادة العشبية المقاعد والكراسي حول موائدٍ كبيرة؛ تحتشد فوقها قناني المشروب التي تجلب من داخل مستودع ميداني يقع في آخر المنتزه. كانت فرقة موسيقية مشهورة تعزف لحنًا من دون تحريك الأقدام، بل يكتفي العازفون بهدهدة رؤوسهم على الإيقاع. لم يكن دخول المجموعة ليعطي أي انطباع في هذه الحفلة لولا حضور الشابتين الجميلتين. بدايةً استرعتا انتباه السيدات من جيلهما. أمّا اللواتي كن يرقصن فقد توقفن عن أداء رقصتهن. قامت بعض النساء الخجولات بالعودة سريعًا إلى مقاعدهنّ حتى يتسنّى لهنّ مراقبتهما عن كثب. بقيت مجموعة أخرى من النساء متسمّرات في حلبة الرقص؛ ووضعت مجموعة أخرى القناني والأكواب على الطاولات حيث كنّ يقفن.

هرع سيد وسيدة المنزل لاستقبال الضيوف الجدد. قام الرجلان بتقديم الشابتين إلى الرجل وزوجته كونهما من المعارف القديمة؛ ثم توجهوا جميعًا إلى منطقة الشرف المعدة لهم مسبقًا، تقدمت «ساغار لو» و«بيندا سيسي» بهدوء تام وهما تدركان أن كل الأنظار ترمقهما بحدّة، فعبرتا حلبة الرقص وهما تعتذران من الحضور. فرحت ربة المنزل عندما سمعتهما تتكلمان الإنجليزية، وشرعت

تحدثهما بعبارات تبين أنها عبارات ثناء على أناقتهما الصارخة. أخذ الرجلان يصافحان الأصدقاء وهما يكلمان رب المنزل عن الشابتين. أما الساحلي فقد وجد نفسه دخيلًا على هذا المجتمع، مجتمع ماريلاند المخملي، لذلك آثر الاقتراب من المستودع الميداني وأخذ يثرثر مع كبير الخدم، الذي وبالرغم من انشغاله لم يرتدع عن إبداء رأيه حول جمال الشابتين السينغاليتين الصارخ.

عاودت الفرقة الموسيقية عزفها. صرّح ربّ البيت أن المعزوفة هي بطلبٍ خاص منه تهدف إلى الترحيب بقدوم «ساغار لو» و«بيندا سيسي». كانتا فرحتين للغاية إذ أنهما تعشقان الموسيقى المرتبطة بالحياة المخملية فهي مليئة بالفخامة والتعظيم وتلائم أناقة ملبسهما. أخذتا ترقصان بسهولة بادية في الحلبة، راقصتا مضيفهما في البداية، كما راقص الرجلان صاحبة الحفلة وابنتها. بدا جو الحفلة رائعًا، كانت الشابتان محطّ الأنظار وموضوع كل الأحاديث التي كانت تدور بين الساهرين. أخذ الراقصون يتناوبون على التقدم من الشابتين ودعوتهما إلى الرقص الواحد تلو الآخر؛ لم يجد أحدٌ غضاضة من التقدم وهو يعلل النفس بأن يكون فتى الأحلام السعيد الذي سيلج قلبًا شاغرًا مستعدًا لاستقباله. عند الساعة الحادية عشرة استأذنت المجموعة مضيفها، لتغادر «ماريلاند» متجهة نحو «ايكويي» حيث تدور حفلة لا تقل فخامة عن سابقتها. وصلوا إلى

الحفلة الجديدة؛ الاستقبال عينه، الجمهور الراقي عينه. تعزف فرقة موسيقية أطلقت على نفسها اسم «جاز باند» ألحانًا مستوردة. لاقت السينغاليتان ترحيبًا حارًا مماثلًا، وقف الساحلي بطبيعة الحال أمام مستودع الخمور كعادته ورقص قليلًا مع بعض النساء المتقدمات بالسنّ اللواتي بدا عليهن المرح والحبور.

تجاوزت الساعة منتصف الليل بكثير فاتفقت المجموعة على مغادرة السهرة، استأذن الرجلان، «ساغار لو»، «بيندا سيسي» والساحلي من أصحاب المنزل وتواروا تعبين لكن مسرورين، قرب السيارة قرروا أنهم لن يعودوا إلى المنزل مباشرة حتى لا يزعجوا زوجة الساحلي التي نامت ولا شك بعد أن انتظرت عودة ضيوفها لوقت طويل. اتفقوا على تناول العشاء في فندق «مايلاند»... لكن لماذا «المايلاند»؟ أعطي الجواب عندما توقفت السيارة ودخلت المجموعة إلى المصعد الكهربائي. نزل صديقا الساحلي في هذا الفندق. حجزا جناحين، كما جرت العادة لدى زيارة «لاغوس». جلس الساحلي والشابتان في الصالة واستأذن الرجلان لبعض الوقت. اغتنم السينغاليون الثلاثة غياب الرجلين حتى يتبادلان الآراء عن الرجلين؛ ويبدو أن كل فتاة اختارت واحدًا من الرجلين كما كان يرغب الساحلي فعلًا.

عاد الرجلان وقد ارتديا بذلتي السموكينغ وشددا

على أن «وحده السموكينغ يلائم لباس الفتاتين». ثم اتجها إلى صالة ملاصقة للجناح الذي حجزه الرجل القادم من «بونانت». كانت الصالة رائعة وأثاثها أنيق، الأنوار مريحة، الموسيقى خافتة بالكاد تسمع مما يزيد على الأجواء حالة من الغبطة المتواصلة. اقترب خادم أنيق هو الآخر يحمل الشمبانيا، بيد أن الرفاق الأربعة عزموا بعناد على أن لا يخرقوا الصمت مطلقًا. شعر الخادم بجدية الموقف فانسحب إلى غرفة متاخمة للصالة؛ وهو على أهبة الاستعداد للقدوم في حال سمع رنين جرسٍ خفيف. وحدها النظرات تبادلت الكلام بين الرجال والنساء. بعد قليل اقتربت المقاعد من بعضها ودار الهمس. أما الساحلي، بعد نجاح مهمته، خرج من الجناح مدّعيًا أنه سيقابل أحدهم في الطابق الأرضي. عندما عاد كان الحديث قد ضرب أطنابه. انتقلوا إلى المائدة، تناولوا عشاءً رائعًا تخلله جرعات سخية من النبيذ الفاخر. مرّ الوقت بسرعة فائقة. عندما انتهى العشاء كان الفجر قد انبلج، صرّح الساحلي أنه منهك. قالت المجموعة إنهم يودون البقاء سوية. سمعت موسيقى صاخبة من النادي الليلي في الفندق وكأنها تدعوهم لزيارته. لم يجد الرجلان صعوبة في إقناع الفتاتين لزيارة النادي الليلي ليشاهدوا عن كثب ماذا يحصل هناك. اصطحبوا معهم الساحلي وهم ينوون «تضليله». هو على علم بما يحصل، فقد خطط

مسبقًا في إمكانية التسلل هاربًا، متى أصبح رفاقه في عهدة مسؤولي النادي الليلي.

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة من صباح اليوم التالي عندما استفاقت «ساغار لو» و«بيندا سيسي»، الأولى في جناح رجل «البونانت» والثانية في جناح الرجل القادم من «الكوت». ستُحاك مسألة كبرى، والساحلي سيكون المحرك لها!...

الفصل الثالث عشر

أخذت زيارات الرجلين إلى منزل الساحلي تتكرر بشكلٍ ملحوظ. وتوالت حفلات العشاء، كما ذهب الجميع في رحلة إلى «عبدان» وأمضوا عطلة نهاية الأسبوع في «بينين». تخلل هذه اللقاءات والرحلات تقديمات عينية؛ هدايا وأموال. أما عن طريقة تقديم هذه الخِلَع فكانت تتم بعناية فائقة واحترام بالغ.

شعرت «ساغار لو» و«بيندا سيسي» بالاكتفاء العميم؛ تناستا أعمالهما التجارية التي كانت أساس إقامتهما في «لاغوس»، كانت المرة الأولى التي تمكثان فيها مدة طويلة في بلاد الأنهار؛ لم تتمكنا من مقاومة إغراء السكن في أجنحة الفنادق الفخمة في فندق «مايلاند».

ومن حين إلى آخر كان الرجلان يغادران إلى الولايات الأخرى في مجموعة الاتحاد من أجل العناية بأعمالهما ولدى عودتهما كان الاحتفال يعمّ؛ بينما الساحلي يقطف ثمار أعماله التي سعى إلى تكوينها بصفاء ذهنه المعهود وزوجته تعاضده بدورها.

ذات يوم عاد الرجل القادم من بونانت وهو يحمل

خزنة خشبية وضعها في زاوية من زوايا غرفة النوم. عند الساعة الحادية عشرة ليلًا، لبس حلّة بيضاء وتعطّر بماء الكولونيا كما أشعل قليلًا من البخور ثم أخرج من محفظته سُبحة ضخمة. وضع الخزنة أمامه وجلس القرفصاء. أخذت «ساغار لو» تراقب هذه الطقوس وهي حائرة بيد أنها لم تكن تشعر بغرابة، ففي حداثتها، قيّض لها مراقبة بعض الرجال من عائلتها أو من المقربين إليها يقومون بهكذا استعدادات تمهيدًا للقيام بتأملات روحية. كانت تعرف أن صديقها يتمتع بقدرات صوفية وقد أخبرها الساحلي أنه يتمتع بقدرات خارقة لذلك لم تتفاجأ «ساغار لو» بما يحصل.

بعد أن دخل الرجل حلقة «الطهر»، أخذ يدندن بعض الجمل وهو ينتقل من حبة إلى حبة في سبحته ثم أخرج مفتاحًا وفتح الخزنة الخشبية؛ أخرج منها تحت أنظار الشابة المشدوهة حزمًا حزمًا من عملة «النايرا» الجديدة والمرصوصة بعناية وكانت الخزنة مملوءة بها. أخذ يدّعي الخبرة وهو يتفحّص رزم المال ويصفّها من حوله. حبست «ساغار لو» أنفاسها وهي تراقبه حتى لا تشكل له مصدر إزعاج. فهمت الآن سبب الوفرة التي يعيش فيها صديقها. بعد ثلاثة أرباع الساعة أعاد الرجل رزم الأموال إلى الخزنة الخشبية وأقفل عليها. بعد ذلك خلع حلّته وعلّقها في خزانة الثياب ولبس منامته واندسّ في الفراش مع «ساغار لو».

في صباح اليوم التالي عادت الشابتان إلى منزل الساحلي لتمضية النهار وحيث المرح عينه يبقى سائدًا. قصدا السوق لبعض الوقت ثم تكلما قليلًا عن فارسي الأحلام.

نبس الساحلي بعض الكلمات المبطنة بطريقته الملغزة المعهودة. كما ألمح أنه يستشعر قدوم بعض البشائر التي تحمل معها كل الخير للشابتين وصديقيهما، وتاليًا سيلحقه هو وزوجته جزءًا من هذه الوفرة المنتظرة. عند الساعة الثامنة، وصلت السيارة التي تحمل الصديقين ورُكِنَت في الزقاق المفضي إلى منزل الساحلي. قرّ القرار أن يتوجه الجميع وعلى رأسهم ربّة المنزل إلى فندق «مايلاند» لتناول العشاء هناك. كانت المائدة فخمة. تقاطرت القفشات من كل صوب على إيقاع صوت سدادات الشمبانيا وهي تفرقع.

نهض الرجل القادم من «بونانت» وصديقه عند منتصف الليل، وطلبا الصمت من الحضور، ثم أخرجا بشكل متزامن علبتين صغيرتين من جيبيهما واقتربا من الشابتين الغافلتين عمّا يحصل معهما. طلبا منهما ببساطة الزواج. ساد الصمت من قبل الفتاتين بعد هذا الطلب فما كان من الرجلين إلا أن فتحا العلبتين: أخرجا خاتمين مرصعين بالأحجار الكريمة وألبسا شريكتيهما الخاتمين في إصبعي يديهما اليسرى. صفّق الساحلي وزوجته. جلس العريسان واقترحا شرب نخب الخطوبة، أما «ساغار لو»

و«بيندا سيسي» فكانتا عاجزتين عن نطق كلمةٍ واحدةٍ فما كان منهما إلا أن رفعتا كأسيهما لشرب النخب.

قيل لهما إن بلاد الأنهار تغصّ بالمفاجآت والأسرار، بيد أنهما لم تتحسّبا مطلقًا للذي يحصل معهما الآن. انتهت السهرة، عاد كل ثنائي إلى جناحه.

بدا الأديم شديد البرودة. شعرت «ساغار لو» للمرة الأولى بهذا الضجيج الغريب الذي تغرق فيه «لاغوس» في ظلّ حالةٍ صعبة وغير محددة من امتزاجٍ للروائح المنبعثة من زيت النخيل والصابون المعدّ مع الكاكاو والمسحوق على آلة معدنية. أتت «ساغار لو» على آخر ثُمالة من شراب الشمبانيا في الكأس الأخيرة بينما كان صديقها يغط في نومٍ عميق. أيقظته بتؤدة، قبّلته وطلبت منه أن يشرح لها مغزى الدعابة التي قام بها في السهرة. فرك الرجل عينيه واعترف لها صراحة أن ما أقدم عليه فعله بكامل وعيه. قام بذلك مع صديقه بعد أن اختمرت الفكرة في رأسيهما لمدة طويلة، وأعربا أنهما يودّان الاقتران بالشابتين شرعيًا. أبلغته «ساغار لو» أنها مقدّرة لهذه البادرة بيد أنها لا تستطيع أن تأخذ بها على محمل الجدّ.

إنها عاجزة عن اتخاذ قرارٍ نهائي من دون الأخذ برأي والديها. فهي تعلم يقينًا أنها ليست بحاجة إلى موافقتهما، لكنها تفضل أن يتمّ التعارف بين «زوج

المستقبل» وأهلها قبل أن تحصل أية ترتيبات. جلس الرجل على طرف السرير وأصغى إلى كلام محدّثته بصمت. بدا عليه وكأنه استفاق من عمله المتسرّع ووافق على المنطق الذي لهجت به الفتاة الشابة؛ عرض على «ساغار لو» أن يرافقها إلى «داكار» حتى يلتقي هناك أسرتها. أفهمته «ساغار لو» أنه في الوقت الحاضر لا مجال للسفر والبضائع التي اشترتها ستشحنها بالطائرة إلى ابنة عمها التي تتعامل بالتجارة هي الأخرى.

في جناح الثنائي الآخر كان النوم سيّد الموقف. كل شيء برسم الانتظار. في اليوم التالي، في موعد الفطور تحديدًا أخذت «بيندا سيسي» قرارها بفتح الموضوع مع شريكها، الذي استبعد كل محاولة للدعابة وانتهى به الأمر إلى الانصياع لأوامر رفيقته الشابة. ومثل رفيقه عرض عليها مسألة السفر إلى «داكار» وإبقاء البضائع في عهدة رجلٍ صاحب ثقة. عندما اجتمعت الشابتان بمفردهما، عرضتا سوية ما آلت إليه الأمور وصعقتا جرّاء توافق الاقتراحين توافقًا تامًا. لم تنتبها كثيرًا إلى التوافق بين موقفي «خطيبيهما».

أسرّت «ساغار لو» إلى صديقتها عن وجود الخزنة الخشبية المليئة بالأوراق النقدية. وأخبرتها عن الطريقة الحذرة التي يتعامل بها رجلها مع الأموال. قصّت عليها كيف يتحضّر لفتح الخزنة مستعينًا بوسائل صوفية وكل ذلك

عائدٌ إلى قدرات خارقة يتمتع بها، عرفت عنها بواسطة ما يرويه عنه الساحلي.

استأجر صديق «ساغار لو» غرفة محاذية للجناح الذي يقطنه. أخذ رجال ونساء لهم مظهرٌ مريب يلتقونه فيها. أصبح يملك خزنة خشبية ثانية انضمت إلى الأولى؛ وتوضعان تحت السرير. يفتحهما الرجل بفترات متعاقبة؛ فيملأ حقيبته برزم الأموال وهو يتوجه إلى «عمله» في الغرفة التي تحوّلت إلى مركز استقبال.

أخبرت الشابتان الساحلي وزوجته بالأحداث الأخيرة؛ فادّعى هذان بالدهشة. لن يمرّ وقت طويل قبل أن تقع التاجرتان في المصيدة! فقد نجحت خطة الساحلي وزوجته. كانت الشابتان تملكان ثروة لا بأس بها، تلقتا عرضًا مغريًا مفاده أن بإمكانهما الحصول على أضعاف أضعاف ثروتهما، فبلغ بهما الطمع لدرجة التخلي عن مجوهراتهما لقاء مبلغٍ بخس. وكل ذلك يحصل تحت غطاء علاقة غرامية ساحقة.

اعتبر الساحلي أنه أفشى سرّ القدرة التي يمتلكها صديقه القادم من مقاطعة «البونانت». فقال:

- لم أود في ظلّ أيّ ظرفٍ كان أن أسبّب له بالإحراج؛ فهو يمثل صورة التواضع في أبهى تجليّاته! إنه صديقي الحميم منذ عشر سنوات. لقد عشنا سويّة لحظات

رائعة. إن عظماء العالم يعهدون إليه بمكامن أسرارهم! لو قيّض لكما قراءة الرسائل التي تتبادل بينه وبين هؤلاء، لكنتما تفاجأتما أكثر! رجلنا هذا كاتم أسرار من الطراز الأول؛ وكم هو رقيق لا يحرج أحدًا! كم هو سخيّ! إنه رجل اللّه رجل الناس، سيجزل عطاء المرأة التي سوف تقترن به ويكرّمها.

في ذلك النهار، أعلن الخطيبان أنهما سيعرّجان على «كوتونو» وسيستمر غيابهما عن «لاغوس» مدة أربع وعشرين ساعة. بالطبع سيكون الساحلي في عداد المرافقين لهذه الرحلة.

الفصل الرابع عشر

بعد العودة من رحلة «كوتونو» استعاد العشّاق نمطهم السابق وكأنهم اعتمدوا إيقاعًا نهائيًا لنمط حياتهم اللاهية. يغادر العريسان العاصمة إلى ولايات أخرى بحجة الإعلام، ثم يعودان وهما يحملان الهدايا المتنوعة. شعرت «ساغار لو» و«بيندا سيسي» بالامتنان. هل هما في بلاد الأحلام؟ ما كانتا تعيشانه خياليّ أم باردٌ مثل الحقيقة؟ هذان الرجلان اللذان يعاملانهما بسخاء، هل هما من السحرة أم من المشعوذين؟ عدد من الأسئلة الملحة التي لا يسعهما إيجاد الجواب عليها.

أما بالنسبة لخطة الساحلي فيبدو أنها تتقدم بشكل جيد ومتين. ذات صباح وبينما كان الرجلان غائبين قصد الساحلي فندق «مايلاند» وهو متيقن أن بإمكانه مقابلة الفتاتين على انفراد وهو الذي أسكنهما في منزله المتواضع منذ مدة غير بعيدة، في حي «سورروليري».

بدأ يحدثهما عن «قدرة الرجل الخارقة»؛ وأتى إلى ذكر الزبائن المميزين الذين يقصدون الغرفة المحاذية للجناح في الفندق: «كل هؤلاء هم من الطبقة الثرية بشكل

أسطوري: مدراء مصارف رؤساء شركات تأمين، محامون كبار في قضايا تجارية».

- لكن ماذا سيفعل لنا رجل «البونانت»؟ سألت الفتاتان بصوت واحد.

لاذ الساحلي بالصمت، ابتسم وحاول ولوج موضوعٍ آخر بيد أن محدثتيه عاودتا طرح الأسئلة.

- لديه القدرة على مضاعفة الثروة، أجابهما. إن زواره ليسوا فقط من طبقة المتعلمين بل لديهم ثقافة واسعة في ميدان التمويل وعالم الاقتصاد. ليس لمدير مصرف أن يتعلم الجمع والضرب! وليس بإمكاننا خداعه بالعملة المزوّرة!

وافقت الشابتان على حديثه. أخذ الساحلي يزيد في حجة الاقناع لديه:

- أعرف العديد من الرجال والنساء في ولايات الاتحاد، أصابوا الثراء وضاعفوا أموالهم وذلك عبر وساطة صديقي. آه! أنا أدرك أن بعض الموهومين يقومون بأعمال مشبوهة، لكن لا يطول الأمر حتى يتمّ كشفهم! بعد زوال غمامة الخديعة تنكشف رزم العملة على أنها أوراق مقصوصة من الجرائد. ويكون المحتال قد فرّ، ففي كل مصلحة يوجد طواويس مهمتهم الادعاء والخداع. مع الأسف عدد الدجالين كبير للغاية مما يشوّش على أصحاب الموهبة الحقيقيين عملهم المعطى من الله!!....

ـ أمّا الرجل الذي عرّفتكم به، فهو سليل عائلة من الحكماء، علماء يمتلكون معرفة علمية خاصة. كان أهله يتمتعون بقدرة تجعلهم قادرين على مخاطبة قوى غير منظورة. ثمة هالة ترافقهم من حين ولادتهم ولا تتركهم مطلقًا طوال أيام حياتهم. لذلك تصبح الحياة سهلة بالنسبة لأولادهم الذين يستعملون هذه الطاقة العجيبة بهدف تأمين حاجاتهم فقط. هدفهم هو العثور بعد جهد جهيد على أشخاصٍ مرموقين حتى يبذلوا لهم كل صنوف التكريم ويفتحوا لهم أبواب السعادة على الأرض من خلال الثروة... لقد أرادت القدرة العظمى أن يكون هؤلاء المرشحون لنيل الثروة من البشر المميزين... أما أنتما فقد حالفكما الحظّ وتمّ اختياركما من رجل «البونانت» وصديقه الوفي، شريكه وتلميذه. أنا أقول من حظكما ولكن أيضًا من حظي أنا أيضًا!..

لم يكن بوسع الساحلي أن يفصح عن المزيد، فالإيمان غزا قلبي الشابتين اللتين كان يكلّمهما.

الصمت من جديد.

تكلمت «بيندا سيسي» خارقة الصمت:

ـ ساغار وأنا ـ قالت موجهة إليه الكلام ـ نريد أن نستشيرك في مشروع فكّرنا به مليًا...

انتصب الساحلي وأخذ يتصرف بجديّة لا مثيل لها. واصلت الشابة حديثها:

- «نحن ندين لك بالكثير...».

اعترض الساحلي مقاطعًا، فهو لم يفعل مطلقًا سوى ما يمليه واجبه... وهذا أمرٌ طبيعي مفروض على كل سينغالي في الغربة أن يساعد أبناء وطنه.

واصلت «بيندا سيسي» كلامها:

- بفضلك، قالت، حصل لنا أن تعرّفنا على رجلين سيبدّلان لنا مجرى حياتنا...

- «إنه القدير الكلي القوة الذي كتب لكما ذلك...» قال الساحلي وهو يحني رأسه علامة التقوى.

واصلت «بيندا سيسي» كلامها:

- «عظيم، إنه اللّه عزّ وجلّ الذي يقدّر كل شيء بيد أن إرادته تمرّ من خلال البشر الذين يعملون لديه كرسلٍ يوصلون مشيئته. فبالنسبة لنا، أنت الذي حمل الرسالة التي تحتوي على مشيئة اللّه...

هزّ الرجل رأسه وكأنه يرفض ما قيل له، مشددًا أنه لا صلة له بما حصل ولا بالذي سيحصل مستقبلًا.

- أنت متواضع للغاية همست «بيندا سيسي»؛ لن ننسى أبدًا ما فعلته لأجلنا... أنت أكثر من والد... لقد عرفتنا عن كثب. كنّا مهتمات بالتجارة، فالمتطلبات في عالمنا الحديث تستدعي جهدًا كبيرًا. من الأفضل أن يعمل

الإنسان بواسطة الأساليب الشرعية حتى يجد مكانًا له تحت الشمس... حمدًا للّه نجحت و«ساغار» في قطع شوطٍ بعيد... نستطيع إنجاز أعمال أخرى بشكلٍ أفضل... وها هي العناية الإلهية تتدخّل! نحن مترددات قليلًا ولكننا سنقول لك: فكرنا أن رجل «البونانت»، يستطيع مساعدتنا على... على... تثمير ثروتنا التي نملكها...

أخذ الساحلي يصغي إلى كلام الفتاة وكأنه كاتم أسرار كبيرِ سوف «يخضّ الدنيا».

شعرت «بيندا سيسي» أنها ارتاحت بعد إزاحتها كحلمٍ ثقيل عن كاهلها. وشعرت «ساغار لو» بشيء مماثل. انتظرَتا وقتًا طويلًا الردّ من قبل الساحلي. بان على هذا الرجل وكأنه انتقل بالروح وهو غارقٌ في تأملاته العميقة. زاد تصرّفه هذا من هيبة الجديّة التي حاكتها له الشابتان في حديثهما.

الفصل الخامس عشر

اعتبر الساحلي أن مسرحيته الصغيرة كافية بالقدر الذي يسمح له أن يكسر صمته وأخذ يتكلم ببطء شديد وكأنه يمنح أهمية كبرى لكلامه فقال الآتي:

ـ لست أدري ما إذا كنت جديرًا بثقتكما... اطمئنّا سأبذل جهدي لنيل ثقتكما... إن الحياة مصنوعة هكذا، سلسلة من الظروف غير المتوقعة... بيد أن قوة الإنسان تكمن في قدرته على التأقلم مع هذه الظروف. أنا أشكر الكليّ القدرة على لقائنا في هذا البلد. وأعيد مرّة أخرى أن ما فعلته مرتبط بواجبي الذي عليّ القيام به تجاه أبناء وطني... «الإنسان يشفيه الإنسان». هذا مثالٌ شائعٌ في السينغال. لقد قام أهلكما بتربيتكما تربية جيدة. أنتما تملكان حسًّا بالقيم ومعرفة بقوانين التصرف في المجتمع. لهذا السبب شعرتما بالراحة في كل مجتمعات هذا البلد الشاسع... هذا يذكرني بحكايات قرانا. غالبًا ما كان الأولاد المهذبون تحت حماية «الجن» والحظّ... وكوننا لم نرزق بأولاد، أستطيع أن أقول إنني وزوجتي نعتبركما مثل أولادنا. لذلك كل ما يتصل بكما يهمّنا على أعلى

المستويات؛ ومن هذا المبدأ نعتبر أن الدفاع عن ثروتكما ومصلحتكما هو واجب لنا... لقد وضعنا اللّه في موقع فريد من نوعه.. هل نغتنم الفرصة أم ندعها تفلت من أيدينا؟ هل نرفض ما قدّمه لنا القدر؟ نحن نعرف أنه في كل التقاليد يسمح للإنسان زيادة على عمله، أن يطلب أمنية. يمكن أن تتحقق أمنيتكما بسرعة ودون إبطاء...

رمق الساحليّ الشابتين بنظرة متفحصة، بدتا وكأنّهما تعبّان كلماته عبًّا، صمت الساحلي لبرهة ثم استعاد كلامه وكأنه استمدّ معلوماته من مصدر إلهام:

ـ هل قستما أبعاد مشروعكما؟ هل تدركان مدى الفخر الذي أصبته بعد أن صرت شريكًا لكما في أعمالكما الشخصية؟ إنهما صديقاي اللذان سيفرحان. لم يسبق لهما أن فعلا صنيعًا مماثلًا لأشخاص مقرّبين منهما إلى هذه الدرجة... أقصد بكلامي من كان يرتبط بهما بأواصر الصداقة... أرى الآن دهشتهما، ذهولهما... عندما سيسمعان بمشروعكما...

ـ قررنا! قالت الشابتان.

ـ أجل قررتما! قال الساحلي الذي أردف:

ـ في مجال آخر لدي مجموعة تقاليد مختلفة تعتبر أموالكما بمثابة دوطة لأن الشابين طلبا الاقتران منكما.

ابتسمت الشابتان بخجل فواصل الرجل كلامه:

ـ هل تدركان أنكما على وشك إنجاز أمرٍ خارقٍ للطبيعة؟

عند هذا الحدّ رنّ جرس الباب. نهضت «بيندا سيسي» من مكانها وذهبت لتفتح. وصل «العريسان» من سفرتهما. كانا يبتسمان بالرغم من زحمة السير في «لاغوس». استقبلهما الساحلي على عادته، وهما يجلسان، نظر الساحلي إلى الشابتين ليأخذ موافقتهما على المشروع فأومأتا بالإيجاب.

أخذ الرجلان يتجرعان الويسكي مع مكعبات الثلج في أكواب مملوءة حتى الشفّة. سألهما الساحلي:

ـ «لا بدّ وأنكما أصبتما الأرباح في هذا الصباح... لكن أنا لدي مشروع أهم».

شعر الساحلي أن الرجلين يرحبان بما يفضيه فواصل كلامه:

ـ ما أقوله يخصكما بشكلٍ مباشر.

لم يطل الرجلان حتى فهما وكأنهما اكتشفا الأحجية، إنه أمر يتعلق بعلاقة الحب مع الشابتين السينغاليتين. فلا بدّ أنهما تستعجلان موعد السفر إلى بلادهما، حتى يتعرّف العريسان على الأهل، فأجابا:

ـ نحن موافقان على الموعد الجديد الذي سيقرر من أجل السفر...

فرح الساحلي بأن الإثارة لا تزال في أوجها فغمز ناحية الشابتين الرائعتين اللتين انفجرتا ضحكًا. بدا الرجلان في حالة تعجّب. بعد عدة جرعات من الويسكي ألقيا نظرة على الساعة وافترضا أنه حان وقت الطعام وعليهما الجلوس إلى المائدة لتناول طعام الغداء. لكن الرجل القادم من «بونانت» لم يتمالك نفسه من النظر إلى «ساغار لو»، ثم قال بنبرة هادئة:

ـ «ليس قبل أن نفكّ رموز اللغز!»

وافقه رفيقه الرأي بالإضافة إلى الشابتين والساحلي. مضت ربع ساعة في محاولة حثيثة لمراجعة كل الاحتمالات، بيد أن رجل «البونانت» وصديقه لم يفقها من الأمر شيئًا فتوجها بالسؤال إلى الساحلي الذي غرق في تأملٍ صامت ثم قال ببساطة بعد أن خرج عن صمته:

ـ هاتان الفتاتان تملكان ما لا يقل عن عشرة ملايين فرنك من الاتحاد الأفريقي ناهيك عن الجواهر والحلي... وبعد أن عرفتا عن رجل «البونانت» ما يملكه من قوة خارقة وبسبب الروابط التي ستصير بينكم أنتم الأربعة بحكم الزواج فقد قررنا مضاعفة ثروتهما... هذا الرأسمال الصغير... سيكون بمثابة مشاركة... نوع من الثقة لا أكثر ولا أقل!

نظر العريسان كلٌّ في عيني شريكه. شعرا بالدهشة

لبرهة ثم ما لبثا أن استعادا رباطة جأشهما. تكمن قوتهما في برودة أعصابهما وقدرتهما على التأقلم في كل الظروف.

وبعد أن أطلق زفرة طويلة، أعلن رجل «البونانت»:

ـ المشكلة أننا لا نعرف ما هي الحدود بين الدعابة وما هو جدّي؛ لدى صديقنا الساحلي...

قبل أن يعارض هذا الأخير تدخلت «ساغار لو» و«بيندا سيسي»:

ـ لكنه لا يمزح أبدًا!... إنه ينقل إليكما ما نريده بالضبط.

في بعض الأحيان تفقد المناقشات معناها. لكن لا أحد يستسلم ويقبل بالهزيمة. الهدوء تليه مناسبة التقاط الأنفاس. لم ينهزم الرجلان بل اعترتهما مفاجأة كبيرة. ما حصل معهما بعيد كل البعد عن التصوّر وذلك بكل بساطة لأنهما لم يفكرا بالأمور على هذا النحو. حقيقة كانوا سعداء للغاية فقد نجحوا في جعل الشابتين السينغاليتين تعشقان عالم «لاغوس» التجاري والمخملي بكل فخامته وسياراته. وبما أنهما يشغلان قلبيهما فهما بذلك يتمتعان بموقعٍ صلب. وعن الزواج فلن يرفضانه... سيدعان الوقت يفعل فعله. كان الرجلان يرغبان في إبعاد الفتاتين عن أعمالهما الخارقة في مضاعفة الأموال، لأن ذلك يخصّ فئة معينة من المتنوّرين.

لكن الفتاتان أصرّتا، لدرجة الشكوك بنيّة الرجلين حيالهما. فما كان من الخطيبين إلا الاعتراض وعرضا نوعًا آخر من الشراكة. صممت «بيندا سيسي» و«ساغار لو» على أن تنفّذ بنود هذه الشراكة حالًا، فحررتا كل واحدةٍ شيكًا باسم رجل «البونانت» حالما قدمتا الشيكات للرجل تردد هذا الأخير مظهرًا تواضعه الشديد وخجله، لم يقبل بأخذ الشيكات إلا بعد أن نظر إلى الساحلي الذي أعطاه موافقته بحركة من رأسه.

ما من وصف يستطيع نقل الصورة التي أمامنا. على مائدة الطعام صار الحديث تافهًا، حيث تناول الحاضرون أخبار الحياة الاجتماعية الصاخبة في «لاغوس».

الفصل السادس عشر

في صباح اليوم التالي وفي الساعة الحادية عشرة تمامًا، ذهب رجل البونانت إلى المصرف، حيث قبض الشيكات بقيمة عشرة ملايين فرنك الاتحاد الأفريقي.

عاد إلى فندق «مايلاند» ليجد صديقه والشابتين والساحلي في انتظاره. اختار أن يشهدوا على الذي سوف يفعله؛ ذهب إلى غرفة نومه وسحب من تحت سريره خزنة من الخزنات الموضوعة هناك. عندما فتحها لم يسع الساحلي والشابتان كتم أنفاسهما من مفعول الدهشة التي اعترتهما أمام منظر رزمات المال من عملة النايرا المكدسة. رمى فوقها الرزمة التي جلبها من المصرف، ثم أخرج من جيبه خيطًا قطنيًا فيه سبع حصاة ملوّنة، ثم أخذ يتمتم كلماتٍ مبهمَة وهو يتجه نحو الجهات الأربع ثم أقفل الخزنة قائلًا:

ـ لندع الآن الأرواح تفعل فعلها!

اتجهت المجموعة المذهولة نحو الصالة. في فترة بعد الظهر غادر الرجلان بصحبة الساحلي فندق «مايلاند» لإتمام بعض الأعمال في المدينة. عبروا الشارع في «سوروليري»

وهم يستقلون السيارة الفخمة، فوصلوا إلى «ماريلاند إيستيت» حيث توقفوا أمام فندق يبدو أنهم يعرفون أصحابه، بعد أن ولجوا صالة مريحة معزولة بدأوا يشرحون المسألة التي كانت سببًا لاجتماعهم.

ـ غير معقول نبس رجل البونانت!

ـ أحسنت صنعًا يا أخي الساحلي قال الرجل الآخر.

بدا على محيا الساحلي وكأنه يتوهج ضياءً؛ فقال:

ـ الجزء الصعب قد تمّ. لديكما ثقة الشابتين، ها هما تحلفان باسميكما، ستعمدان إلى استعمال الطريقة الكلاسيكية في العمل...

بعد وقت قصير من وضع الخطة، غادر الرجلان الفندق إلى منطقة «المارينا» حيث عرّجا على متاجرٍ فخمة وابتاعا عددًا كبيرًا من الهدايا لصديقتيهما الشابتين. ساد على العشاء كالعادة جوّ من المرح والحبور. بعد زيارة النادي الليلي عاد كل ثنائي إلى جناحه بعد الاستئذان من الساحلي.

قبيل انبلاج الفجر، نهض رجل البونانت وارتدى حلّته البيضاء الناصعة. فتح خزنة العملة المكدّسة برزمات النيرة ثم ما لبث أن بدأ يناجي آلهة مجهولة. شعرت «ساغار لو» بخدرٍ لطيف جرّاء الكلمات التي لم تفقه لها معنى وما لبثت أن غمرها النعاس وهي تحلم بمضاعفة ثروتها. عندما

استفاقت في الساعة التاسعة كان «رجلها» يرتدي ثوبًا من الترغال الأزرق ويستعد لملاقاة رفيقه في بهو الفندق.

في خلال الأسبوع سافر الرجلان مرتين إلى «بينين».

استوردت «ساغار» و«يسندا» بعض البضائع من السينغال بمساعدة الساحلي. كما وصلتهم أخبار مطمئنة...

كانت أبواب «لاغوس» تفتح أكثر فأكثر للتاجرتين الشابتين. لقد اكتسبتا بعض العادات من ذلك البلد وهما معجبتان بنمط هذه الحياة الجديدة. كان الرجلان بالإضافة إلى الساحلي يعاملانهما معاملة رائعة.

بعد مرور أسبوعين على تخزين المال في الخزنة السحرية، جمع رجل البونانت حاشيته في «مكتبة - المختبر» حيث وضع خزنة معدنية متوسطة الحجم. قام وفتح هذه الخزنة وسحب منها أربع رزم من عملة النايرا وطلب من الساحلي عدّها. وطلب منه الرِجل الآخر أن يعدّ المال مرة جديدة. فوجدا الرقم مطابقًا ما يعادل عشرين مليون من فرنكات الاتحاد الأفريقي، حمل رجل البونانت الرزمات وقدمها إلى «ساغار لو» و«بيندا سيسي» بحركة احتفالية وقال:

ـ «هاكما رأس المال!...»

لم تصدّق الشابتان ما تراه أعينهما ولا ما تسمعه

آذانهما. كما حاولتا أن لا تسقطا في غيبوبة. وبنفس مقطوع من الدهشة نبستا ما يلي:

- تابع عملك!... نحن نثق بك ثقة تامّة!

شكرهما رجل «البونانت» وعمد إلى وضع رُزَم المال في الخزنة الحديدية وتوجه الجميع إلى صالون جناح الرجل الثاني. مشوا بخطى واثقة إذ بدوا في حركتهم البطيئة أنهم، رجالًا ونساءً، يتشاطرون سرًّا عجيبًا.

تعددت الرحلات. اغتنمت «ساغار» و«بيندا» فترة عطلة نهاية الأسبوع للسفر إلى «داكار». كانت رحلة قصيرة مجرّد ذهاب وإياب! كانت تجارتهما مزدهرة، قامتا بوضع خطة لتأسيس شبكة تجارية لمستحضرات التجميل، تعمل على «لاغوس» «بانجول» و«داكار». وظهر على صديقيهما أنهما يشجعان هكذا مشروع تجاري.

ذات يوم، قررت الشابتان الإعراب عن رغبتهما في السكن مع صديقيهما في فيلّا هانئة في مناطق مثل إيكويي، فيكتوريا أيلند أو أبابا. رفض الصديقان لأسباب منها الأمن والحماية والراحة والجو الملائم لأعمالهما. وبسبب الحاجة لاستعمال «التيليكس» وسائر المستلزمات الأخرى للعمل. ولم يعد هذا الموضوع قيد التداول. ويجب أن لا ننسى أن حياة الفندق تلائم معظم النساء اللواتي يتحررن من الأعباء المنزلية وما تتطلبه من عملٍ متعب.

عندما كان رجل البونانت يعود إلى «لاغوس» يتحول جناحه إلى مضافة فيستقبل كل مساء عددًا كبيرًا من الزوار في «مكتبة ـ المختبر». بينما «ساغار لو» و«بيندا سيسي» تخلدان كل مساء إلى النوم تدغدغهما أحلام بالثراء الذي سوف يبدّل حياتهما.

الفصل السابع عشر

صار رجل «البونانت» يمضي كل سهراته مع زواره، مما أصاب «ساغار لو» بخيبة أمل كبيرة.

وحتى يهدّىء من روع صديقته أخذ يعدها برحلة طويلة إلى أوروبا يمضيانها كعاشقين في جو رومنسي. كان جهاز «التيليكس» يعلمه كل يوم بأخبار غير مستحبة يراجعها مع صديقه في سرّية مكتبة ـ المختبر. كما دفعا لصاحب الفندق الذي بدأ ينفد صبره مبلغًا من المال يغطي نصف نفقات ستة أشهر من الإقامة في أجنحة مكلفة.

أخذت بعض الرسائل التي كانت تصل «بالتيليكس»، طابعًا ملحاحًا ذات نبرة مهددة مستعملة عباراتٍ مثل «احتيال»، قطّاع طرق وتهدد باللجوء إلى القضاء الفدرالي.

في ذلك الوقت أيضًا كان من الضروري أن يعمد الرجلان إلى الحفاظ على ماء الوجه أمام إدارة الفندق؛ وجعل زبائن «لاغوس» يتحلون بالصبر ومداهنة زبائن «عبدان» و«ايفي»، بالإضافة إلى معاملة الشابتين بحفاوة. ظلّ الوضع على هذا المنوال مدّة شهر. والساحلي يبذل كل جهده في إقناع ربيبتيه.

ذات يوم؛ أفصح الرجلان للشابتين بضرورة السفر العاجل إلى الولايات المتحدة الأميركية. ثمة أعمال ملحة تدعوهما إلى هناك. إنها فرصة سانحة لأجل تسويق مستحضرات التجميل لمصلحة «زوجتي المستقبل». كان من المقدر أن تدوم الرحلة مدة أسبوعين حيث لن يتبدل شيءٌ في نمط حياة الشابتين. سوف يبقى الساحلي هنا يواظب على خدمتهما بوفاء. أما الاتصالات بين أميركا ولاغوس ستؤمّن لهما وسيلة تبادل المعلومات.

وضع المشروع على نارٍ حامية. في المساء طال الحديث بين «ساغار» و«بيندا» والخطيبين اللذين غادرا إلى أميركا. وعلى دفعتين قامت الشابتان بتحويل السيولة النقدية من حسابهما المصرفي إلى «عريسي المستقبل». انقضى شهرٌ. أعلن الخطيبان عن ضرورة البقاء في أميركا لمدة أطول. وأرسلت مبالغُ أخرى من المال إليهما. بعد ذلك ساد الصمت، ثم وصلت بضعة اتصالات قليلة من إحدى ولايات الفيدرالية، كان الساحلي المتفائل دومًا يجد تفسيرًا لكل شيء إذ تحجج أن العريسين يبتاعان الهدايا وهو يعلم ذلك يقينًا من صديقيه اللذين يتصلان به من دون انقطاع.

بدأ مدير «المايلاند» يفقد صبره وأعرب عن قلقه بطريقة مهذبة للشابتين. شعرت «ساغار» و«بيندا» بالإهانة

لأن مدير الفندق يتشكك بنزاهة خطيبيهما فاحتجّتا على طلبه. أما المال الذي تملكانه الآن لن يكفي لسداد الحساب. فما كان منهما إلا أن طلبتا من الساحلي بيع مجوهراتهما؛ فحصل على المال الكافي لدفع نفقات الشهر في غياب صديقيهما. توالت الأسابيع كامدة بالرغم من محاولات الساحلي وزوجته في إضفاء جوّ من المرح واللطف والوفاء على حياة الفتاتين. بدأت «ساغار» و«بيندا» تطرحان الأسئلة:

ـ «ما هي الأعمال الملحة التي ارتبط بها الخطيبان في أميركا؟

ما الذي جعل إدارة الفندق تعاملهما باحتقار؟ لماذا بعض الزوار «المسائيين» من زبائن خطيبيهما يعاملونهما باحتقار؟ وأيضًا فقدان الاتصال تمامًا، هل هذا يدعو إلى انتظار حلول كارثة غير طبيعية؟

كان الساحلي يبذل جهده لمحو هذه المخاوف عندما وصل مساعد مدير الفندق وأعلن بتهذيب ولكن بصرامة القرار الآتي: «إذا لم يسدد المبلغ المترتب عليهما في غضون يومين، ستجد الإدارة نفسها مرغمة على اتخاذ إجراءات...»

خرج مساعد المدير من دون أن يعبأ باحتجاجات الساحلي. لم تعد «ساغار» و«بيندا» تفهمان ما يحصل لهما.

نظرتا طويلًا إلى الساحلي، بيد أنهما عجزتا عن الوصول إلى حلّ في الوقت الحاضر... فجأة التمعت فكرة في رأس «بيندا»:

ـ «نحن نملك حلًّا»!

تفاجأ الساحلي و«ساغار» ورمقاها بأنظارهما. فدلتهما على السرير حيث كانت «ساغار» ورجل البونانت ينامان.

ـ «الخزنة مليئة برزم المال. ما يوازي عشرين مليون فرنك اتحاد أفريقي، ما نفع المال إذا لم يساعد في رفع العوز والمهانة عن كاهل الإنسان!؟ هيا بنا لنأخذ حاجتنا حتى نسدد فاتورة الفندق. لن يلومنا الخطيبان عندما يعودان من السفر...

نصحهما الساحلي أن يصبرا قليلًا بعد؛ بيد أنهما رفضا فكرته. وقالتا له:

ـ أمام الكرامة المهدورة لن ينفع الصبر أبدًا.

أمرته «بيندا» أن يجلب الأدوات الضرورية لفتح الخزنة. خرج الرجل ليعود بعد ساعة متعللًا بزحمة السير ذهابًا وإيابًا من الفندق إلى منزله وبالعكس. كانت الشابتان قد اتخذتا قرارًا لا رجوع عنه. نزع الساحلي نظاراته، نبس بعض التعاويذ بينما قرأت «ساغار لو» جملة آيات من القرآن الكريم؛ ثم انكبّ على العمل. أخرج من أحد الأكياس

علاقة فيها جملة مفاتيح أخذ يحاول بها فتح الخزانة. بدت بعض المفاتيح وكأنها على وشك فتح القفل بيد أنها كانت تخفق بعد دورة أو دورتين. أخذ الساحلي يتصبب عرقًا بعد خمس دقائقٍ من المحاولات الحثيثة أمام أنظار الشابتين المتقدمتين. أخيرًا دار المفتاح في أحد الأقفال؛ سُمعت قرقعة قفلٍ صدىء. ثم نجح في فتح القفل الآخر. ذهل الرجل فترك المفتاح في القفل، أمسك رأسه بيديه وأغمض عينيه. أخذ ينبس بأصوات غير مفهومة. أخذت «ساغار» تتلو آيات قرآنية لإبعاد الأرواح النجسة. ثم قرر الجميع نزع الغطاء: شاهد الثلاثة دستة ضخمة من الصحف تعود بتاريخها إلى أيام الحرب الأهلية!...

ظنّت الفتاتان أن الصحف موضوعة لحماية الأموال؛ فطلبتا من الساحلي مواصلة البحث، الذي لم يعثر سوى على دستة أخرى من الصحف الصفراء بفعل التقادم. اعتبرا أن رجل البونانت وصديقه ابتدعا هذه الحيلة تجنبًا للسرقة من قبل اللصوص المحتملين. لا بدّ وأن المال في الخزنة الأخرى التي شرعوا يحاولون فتحها. فتحت الخزنة الثانية فكانت النتيجة عينها، أغمي على «ساغار لو» و«بيندا سيسي» حاول الساحلي ردّهما إلى رشدهما فأسقط في يده، ماذا عساه يفعل من دون الاتصال بخدمة الغرف؟ حاول أن يتذكر إجراءات الإسعافات الأوليّة التي تعلمها عندما كان في عداد فرقة «الكشّافة الأفريقية»؛ وانتهى به

الأمر إلى إسعاف الشابتين ولكن ليس بدون مكابدته لعناءٍ كبير. أما الخزنة الحديدية في الغرفة المقابلة كانت هي الأخرى فارغة تمامًا.

بعد ذلك بدأت مناقشة حادّة بينه وبين الفتاتين اللتين خرجتا عن طورهما. فقد أخذتا تكيلان سلسلة من التهم للساحلي صاحب القبعة العتيقة البالية، والنظارات السوداء والسترة الشتوية القديمة التي لا يخلعها أبدًا.

وبطلب من الفتاتين أتى مدير الفندق إلى جناح رجل البونانت لمعاينة الوضع. كما أعرب للفتاتين عن أن إدارة الفندق مجبرة على «احتجازهما» حتى نهاية التحقيق. ووافق على أن تسكنا مؤقتًا في غرفة صغيرة بسريرين.

شعرت الشابتان بذلٍ كبير وباعتا من دون وسيط بعض الحليّ لدفع نفقاتهما. اتصلتا بسفارة بلادهما التي أقنعت إدارة الفندق «مايلاند» وشرطة «لاغوس» أن الفتاتين ذات أخلاق عالية وهما تتحدران من عائلتين مرموقتين وثريتين وهناك من يضمنهما ماليًا في السينغال، وقد وقعتا ضحية عصابة من المحتالين.

تمّ تسريع معاملات ترحيل الفتاتين ـ على نفقتهما طبعًا ـ من البلاد. كان يجب أن ننتظر ستة أشهر أخرى قبل أن تعود «ساغار لو» و«بيندا سيسي» إلى «لاغوس» وهما تتحليّان بالشجاعة والبأس.

بعد أن عاد الساحلي من رحلة الإشتاء التي يقوم بها كل سنة أخذ يتحاشى اللقاء بهما.

قررت التاجرتان نسيان حادثتهما المأساوية. أخذتا الآن تدققان في كل شيء وتلزمان الحذر. وبالنسبة للزبائن فقد اتفقوا أن يحذوا حذوهما بعدم التعامل مع الساحلي صاحب القبعة القديمة والسترة العتيقة والنظارات السوداء.

الفصل الثامن عشر

بعد الحرب الأهلية نشطت الأعمال التجارية بشكل مضطرد في «لاغوس». تهافت المستثمرين من أوروبا والولايات المتحدة ومعهم العروض الضخمة. وبسبب المنافسة الشديدة بمواجهة أخصامٍ أشدّاء، اتجه التجّار إلى معركة قوّة وشدّ حبال بالغة الشراسة. في النهاية ينجح القوي في الفرار من معمعة المنافسة وقد اقتنص العقود التجارية اقتناصًا. لم يهدأ للأفارقة الغربيين بالٌ؛ ويجب القول إن «نيجيريا» تغري الكثيرين بأسواقها، أما التفسير المنطقي لهذه الظاهرة فنعثر عليه في الضواحي حيث يسود التنوّع العرقي والتوازن الاقتصادي المستمرّ. يا له من بلدٍ مدهش ضمن اتحادٍ فدرالي حيث النشاط الاقتصادي يشمل كل الطبقات الاجتماعية! وباختصار يعتبر الشعب النيجيري شعبًا حيويًا. أما الصورة التي تبقى عالقة في ذهننا من شوارع «لاغوس»؛ فهي صورة البضائع التي نستطيع شراءَها؛ لعبة لطفلٍ، لوحةً رقمية لسيارة؛ حتى أدقّ المنجزات في عالم الإلكترونيات المعقّدة. ونلاحظ أيضًا أن عدد الباعة يتضاعف ومعنى ذلك أن عدد المشترين يتضاعف هو الآخر في الأسواق.

وصل «دودو سوك» إلى «لاغوس» بهدف تأسيس متجر صياغة تابع لمتجره الأصلي في «كوتونو». إنه حلم قديم يراوده، بقي مؤجلًا مدة طويلة بسبب ضيق ذات اليد. بعد خمس عشرة سنة من الإقامة في «بينين» حيث وعلى عكس الساحلي جمع حوله عددًا كبيرًا من الناس وأصبح يتمتع بشهرة كبيرة. كانت شهرته ذائعة كونه رجلًا مستقيمًا مهاب الجانب وموهوبًا. كانت الشهرة تؤمن له استمرارية الزبائن بشكل متواصل. وبين زبائنه نجد أشخاصًا من «بينين» عاشوا في السينغال وحافظوا على تقاليد اكتسبوها؛ في «داكار» أو «سانت لويس» في اللباس أو نمط الحياة. كان «دودو سوك» يبيعهم المجوهرات المصنوعة من المذهبات الدقيقة والرائجة في شبه جزيرة الرأس الأخضر.

نما مشغله في «كوتونو». كما لقّن أصول المهنة لأولاده وأقربائه وطلب مساعدة أقرباء آخرين من أجل تلبية احتياجات السوق المتواصلة. زاد عدد الزبائن ومنهم الأسر الميسورة التي لم تعرف السينغال.

أخذ «دودو سوك» يبيع الحليّ في فرع «لاغوس» وهو كناية عن فيلا فخمة في شارع «سوروليري» حيث يعثر الزبائن النيجيريين على آخر صرعات الموضة السينغالية في صناعة الجواهر. وقرر أن يشاركه ابنه البكر الذي كان يبشر بمستقبل مهني زاهر.

أنهى «دودو سوك» معاملاته القانونية، وحسّن من منشآته، فقرّر تفعيل علاقاته الخاصة في عاصمة الفيدرالية. كان رجلًا متفائلًا للغاية. وذات يوم بينما كان مزمعًا على لقاء أحدهم؛ التقى الساحلي في «إكويي» قبل المحوّل على الطريق العام. كان الساحلي صاحب مشاغل لا تنتهي وهو يحث الخطى، فالزحام يسمح لمن كان يمشي أن يواكب سيارة في تقدمها البطيء. شاهده «دودو سوك» وناداه. عرفه وهرع إليه. كان يتجه إلى منزله لعقد صفقة مهمة. بينما كانت السيارة تتجه إلى منطقة «إيكويي» أخرج الساحلي من جيبه سبيكتي الذهب أمام «دودو» ليراهما. وأخبره عن الكمية المعروضة للبيع وعن مصدرهما والسعر الذي يعرضه البائعون وهم من أصدقاء الساحلي منذ زمن بعيد؛ أصدقاء يثق بهم كثيرًا.

سبق لـ«دودو» أن تعامل مع الساحلي في صفقات كهذه في الماضي. عقد صفقات لحسابه الخاص وأخرى لحساب صديقه «مورسار» أحد أعيان «كوتونو». جلب «دودو» معه المواد الأولية لتصنيع الذهب في «لاغوس» وشعر بحزن لعجزه عن عقد الصفقة كاملة مع الساحلي، فقرر هذا الأخير أن يجعل «مورسار» يدخل شريكًا في عقد الصفقة؛ فرح «دودو سوك» بهذه الفكرة الممتازة.

تمّ القرار أن يسافر الصديقان إلى «كوتونو» في آخر السهرة. وصلا إلى عاصمة الـ«بينين» فتوجه «دودو سوك» مع الساحلي إلى منزله، بعد العشاء اتصل «دودو سوك» بـ«مورسار» ليخبره أنه سيقوم بزيارته.

وصلا إلى منزل «مورسار»، فتح لهما أحد الحراس باب الفيلا الفخمة الواسعة. كان ربّ المنزل ينتظرهما جالسًا على كرسي في شرفة مضاءة. بعد السلام والكلام دخل «مورسار» و«دودو سوك» إلى المكتب وبقي الساحلي بمفرده تحت الشرفة.

أخذ دودو سوك يفحص السبائك بواسطة حمض الكلورايد وملقط المعادن أمام «مورسار» الذي سأل عن المبلغ المطلوب لقاء خمسة كيلوغرامات ذهب.

- خمسة ملايين فرنك اتحاد أفريقي أجابه «دودو سوك».

عقدت الصفقة، استدعى الرجل موظف المحاسبة وأمره أن يتجه في الغد إلى المصرف لسحب المبلغ. تمّ القرار على أن يلتقي الرجال الثلاثة في تمام العاشرة صباحًا من اليوم التالي. انسحب موظف المحاسبة بعد أن تمنّى لهما ليلة طيبة. عاد «مورسار» و«دودو سوك» إلى حيث تركا الساحلي فوجداه يغط في النوم. أمر المضيف بجلب الشاي الموريتاني لضيوفه؛ وسأل عن أبناء بلده في لاغوس، كما

أعرب عن رغبته في زيارة العاصمة في يوم غد بعد الظهر. ربما سيرافق ضيفيه. ثم سأل الساحلي ممازحًا ما إذا كان أصحاب الذهب رجال ثقة أم لا.

فأجابه الساحلي أنه من المستحيل في زمننا هذا أن نعثر على أشخاص نزهاء مئة بالمئة، لكنه منذ بدأ يتعامل مع «مورسار» لن يندم هذا الأخير مطلقًا. برد الجو فانفصل عقد اللقاء، وعرض «دودو سوك» على الساحلي أن يبيت في منزله وسيعود الجميع ليلتقوا في الغد في الساعة العاشرة صباحًا في مكتب «مورسار».

الفصل التاسع عشر

كان اليوم التالي يوم جمعة، والطريق بين «لاغوس» و«كوتونو» مزدحمة بالسيارات فهذا هو اليوم الأخير قبل عطلة نهاية الأسبوع. كانت سيارات معينة تسير في ركاب الشاحنات المحمّلة بالكاكاو وسيل السيارات يشكّل صفًا طويلًا على نقطة الحدود في ايغولو[1]. كان المسافرون الذين يقصدون لوميه[2] أو أكرا[3] يغادرون سياراتهم لبرهة وجيزة من أجل الحصول على تأشيرة الدخول الممهورة على جوازات السفر؛ كل ذلك وسط الصيحات ورنين الضحكات. وكانت تسمع الأصوات تدعو إلى حفلات غداء في فندق الشاطىء في «كوتونو»، أو دعوات العشاء في فندق «بينين» أو «لوميه» أو فندق «ذا بريزيدنت» في «أكرا»، بينما ينتظر المسافرون بصبر دورهم في الحصول على إذن عبور الحدود من خلال الممر الضيق الذي يفصل «نيجيريا» عن «بينين».

---

(1) ايغولو: مدينة صغيرة تقع على الحدود بين نيجيريا وبينين.
(2) لوميه: عاصمة جمهورية توغو.
(3) أكرا: عاصمة جمهورية غانا.

غالبًا ما كان «مورسار» يذهب إلى «لاغوس» في يوم الجمعة بعد الظهر تحديدًا بسيارته الخاصة. حصل منذ عام على صفقة بناء دائرة حكومية عبر مناقصة لذلك استأجر فيلا في «سورو ليري». كانت هذه الفيلا بمثابة مكتب عمل وموطىء قدم له في بلدٍ آخر. في أيام الأسبوع كان مدير الأعمال يشغل المكتب أما يوم السبت فكان مخصصًا لمناقشة الأعمال مع المتعهّد. ويعود «مورسار» إلى «كوتونو» يوم الثلاثاء في فترة بعد الظهر.

عند الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة وصل «دودو سوك» والساحلي إلى مكتب «مورسار» كما كان متفقًا. كان المتعهد ورئيس المحاسبة بالانتظار. وضّح «مورسار» أنه يتعامل فقط مع «دودو سوك»، كما طلب من رئيس المحاسبة أن يعدّ المال حتى يتسلّمها «دودو سوك» كما طلب من الساحلي أن يشهد على المكان والزمان الممهدان لعقد الصفقة المالية التي سيتم خلالها تبادل السبائك بالمال. فقرر الساحلي أن تتم الصفقة الساعة الحادية عشرة من يوم الاثنين المقبل حتى يعطي «دودو سوك» المهلة الكافية. وحينما يصلان إلى «لاغوس» سيتم تعيين مكان اللقاء بعد الاتصال بالرجال الثلاثة أصحاب السبائك.

وضع «دودو سوك» رزم المال في حقيبة صغيرة وتشبّث بها بقوّة تحت إبطه. وقرر أن يعود فورًا إلى

«لاغوس» لأنه لن يبقى إلى فترة بعد الظهر. ودّعهما «مورسار» متمنيًا لهما رحلة طيبة؛ وقرر أن يتصل بـ«دودو سوك» عند الثامنة مساءً لدى وصوله إلى عاصمة الفيدرالية.

عاد الصائغ إلى منزله وبرفقته الساحلي حيث التقط بعض الأغراض وجال على المشاغل حيث كان الجميع يعملون بنشاط؛ ومع حلول ساعات الظهر كانت الرحلة إلى «لاغوس» قد بدأت.

عبرا الحدود من غير عناء يذكر، وقطعا مسافة المائة وستين كيلو مترًا بسرعة معقولة نسبيًا. أوصل «دودو سوك» الساحلي إلى نزل «أبابا» وعاد إلى منزله.

عند الساعة الرابعة والنصف دخل «دودو سوك» إلى متجر مستطيل يحتوي على مستودعات ومكاتب تغصّ بالرجال المنهمكين بأعمالهم ويصعب على أي كان أن يعرف من العامل ومن المسؤول في هذا الخضم. ومن دون لأي عثر «دودو سوك» على ضالته. شوهد وهو يخرج مع رجل له لحية بيضاء يرتدي جلبابًا أنيقًا باللون الأزرق الغامق ويرتدي سترة فوق الجلباب كما يضع على رأسه عرقية بيضاء. كان الرجل يمضغ الكولا بدون توقف. ثم ما لبث أن أشار إلى سيارة ضخمة زرقاء فجلس الرجلان على المقاعد وانطلقت السيارة بهما.

كان «دودو سوك» على علمٍ مسبق بالسيناريو وخط

الرحلة. كان الرجل يسكن في «ماريلاند» وهو حيّ هادىء بامتياز. عند الساعة السابعة، عاد «دودو سوك» إلى الفيلا. استبدلت رزم الفرنكات بعملة النايرا بنسبة ملائمة تفوق عمليات التبديل التي حصلت منذ ثلاثة أسابيع.

في الساعة الثامنة اتصل الساحلي بعد مغادرته نزل «أبابا» وأفهم عميله بلغة «الولوف» أن الصفقة ستعقد الساعة الحادية عشرة من يوم الاثنين. وبسبب ظروف أمنية سيبقى تحديد المكان طيّ الكتمان. بعد ذلك وصل «مورسار» بدوره واتصل بـ«دودو سوك»، الذي وضعه في جوّ المبادلات التي حصلت وكيف جهّز للعملية في فترة بعد الظهر كما أطلعه أيضًا على ما فعله الساحلي والاتصال الذي عقده.

أكّد «مورسار» لـ«دودو سوك» أن العملية برمّتها صارت بين يديه ووعده أنه سيسعى لمقابلته في يوم غد. وفي الوقت عينه تمنّى له ليلة طيبة وحظًا سعيدًا.

الفصل العشرون

نهض «مورسار» في الصباح الباكر من يوم السبت، اتجه إلى موقع البناء وقام بزيارته بعناية فائقة مدققًا بكل كبيرة وصغيرة، ولم يتردد في جعل العمال يفكّون العارضات التي بدت له ركيكة وذلك أمام عيون رئيس العمال المستسلمة. بعد مراجعة الحسابات مع رئيس الموقع، ذهب ليزور بعض الرفاق النيجيريين. بعد أن قام بزيارات مجاملة عاد ليتناول طعام الغداء في منزله حيث كان «دودو سوك» بانتظاره.

بعد القيلولة ذهبا لمقابلة بعض السينغاليين في السفارة. عادا مع حلول المساء إلى منزل «دودو سوك»، ثم ذهبا إلى المدينة، إلى منزل «سيريني ندوغال» الذي يسكن وسط مكتبات تغص بالمؤلفات العربية كان «سيريني» هذا رجلًا مرموقًا يلقّب بالبطريرك. كان شعره الأبيض الكثيف يظهر عينيه الملتمعتين وسط دائرة، متوسط الطول، عضلاته بارزة مما يفسّر أنه يتمتع بصحة تفوق المعدل الطبيعي. كان الرجل مثقفًا ثقافة كبيرة بالإضافة إلى أنه عملي إلى درجة كبيرة، اختبر العديد من الأمور ويعرف كيف يصغي إلى

محدثه. استطاع في بلد الأنهار، إجادة اللغات المحلية وأقام سلسلة من الصداقات في جميع ولايات الاتحاد. كما انتدبه سكّان شارع «سوروليري» كوسيطٍ لهم. ففي كل الظروف يعمد أبناء الجالية السينغالية في «لاغوس» و«بينين» إلى استشارته ويكنّون له محبة خالصة.

عندما وصل «مورسار» إلى «لاغوس»، تفقد أعماله واتجه فورًا إلى «البطريرك». وكان يفضل أن يتبعه هذا العلّامة في صفقات الأعمال وفي الأسواق خلال قيامه بمشتريات.

عند حلول المساء، يبذل مورسار جهدًا كبيرًا لإقناع العجوز الجليل بالمبيت في منزله في حجرة الضيوف تحديدًا. كان صديقا «دودو سوك» يسهران إلى ساعة متأخرة من الليل تتخلل محادثاتهما رشفات من كمية كبيرة من الشاي المركّز بشدة والمحلّى بكثافة والمعدّ على الطريقة الموريتانية في الضفة الأخرى من نهر السينغال.

كان الساحلي يخاف من «البطريرك» خوفًا معلنًا. فهو يعرف يقينًا كم هذا العلامة صريحٌ في كلامه مما يضعه في غالب الأحيان في ضيقٍ شديد. كان العجوز وحده من بين سائر الخلق الذي يقدر على إيقافه عند حدّه كلّما دعت الحاجة إلى ذلك.

من مهام هذا الشيخ الجليل حلّ النزاعات الناشبة بين

أبناء الجالية السينغالية والساحلي في طول وعرض بلاد بينين ولاغوس. عندما كان الساحلي يستبعد من قبل أبناء بلده بعد عملية تجارية وسخة من أعماله. كان البطريرك يستغل احتفالًا عائليًا ليرافع عنه. وبعد ذلك يظهره على أساس أنه قادرٌ على تحمل كل تبعات أعماله. وفي كل مرة كان ينجح في قلب كراهية الحضور إلى نوعٍ من الرضوخ إلى الأمر الواقع. اعتبر الجميع أنه من المحالَ تبديل سلوك رجلٍ في الستين.

ذهب الساحلي يوم الاثنين بعد الظهر إلى منزل «دودو سوك». كان الصائغ يعمل في محترفه. تسنّى للساحلي مرة أخرى أن يعود للانغماس في وسطه الأصلي. كانت الملاحظات التي جلبها معه تخلو من الدقة بشكل كبير. لم يكن الرجال الثلاثة في نزل «أبابا» قد عيّنوا بعد مكان اللقاء. وكونه قد سبق له التعامل معهم؛ لم يجد سببًا يدفعه إلى التصرف بفضول. لم يرق لـ«دودو سوك» هذا اللغز الحاضر.

عاد الساحلي من حيث أتى ولم يعاود الظهور إلّا في الساعة العاشرة والنصف، حيث وجد «دودو سوك» بصحبة «مورسار» الدائن بالفائدة. كان الساحلي مزمعًا على مرافقة الرجلين إلى مكان عقد الصفقة. فقام وأعلمهما بمكان اللقاء. كان هذا المكان يقع في أرضٍ يباب في شمال شرق «إيكيا» حيث تقوم قرية موازية لمدرج المطار شرق حيّ

«ماريلاند ايستيت». كانت الطرق المؤدية إلى ذلك المكان متعرّجة وصعبة المسالك لا تستطيع السيارات سلوكها. وفي تلك الساعة المتقدمة من الليل، على المرء الذي يذهب إلى ذلك المكان أن يكون معتادًا على الشوارع المشبوهة الواقعة في تلك البقعة من العاصمة؛ والتي لا تجسر الحكومة الفيدرالية أن تبسط سلطتها الإدارية عليها حتى كان سبق لـ«مورسار» أن سمع عن مدى الهامشية والانفلات في تلك المنطقة وعن التجاوزات التي تحصل في بعض الشوارع والقرى التي ترتبط بـ«لاغوس» من دون إذنٍ واضح. إنها قرى مبنية بطريقة غير شرعية ومع الوقت تتحول إلى أمرٍ واقعٍ عن حالةٍ مؤقتة. وسبب الإصرار تتحول هذه الشوارع إلى حقيقة تنهج نهج الاندماج الكليّ مع المدينة الكبرى التي تعجز عن لفظها. كان «مورسار» يعرف أن الساحلي معتاد على ولوج هذه الشوارع وأن «دودو سوك» يدرك ما يفعل بوعي واستقامة وشجاعة بيد أنه اعتبر أن حضوره مهم في هذه الرحلة. عندما أعرب عن رغبته في مرافقة الرجلين في مهمتهما؛ اعتبر الساحلي أن «أصحاب المعدن الثمين» لا يعتبرون أنه من المهم في الوقت الحالي مقابلة الزبون. فلا يجب أن يتعرّض هذا الأخير لمشاق رحلة مدموغة بفقدان الأمان. قبل «مورسار» هذا العرض وقرر العودة إلى منزله حيث سيمكث بانتظار عودة رسوليه.

الفصل الواحد والعشرون

إنها الآن الحادية عشرة إلّا ربع. ركن «دودو سوك» سيارته في آخر واحدٍ من الدروب يختفي في حرشٍ مليء بالأشواك والأشجار الكثيفة. ولكي يتقدم برفقة الساحلي كان عليهما أن يتسلقا بضعة تلال والمشي بمحاذاة الساقية التي حفرتها الأمطار في الشتاء الماضي في الأرض الصلبة.

قام الساحلي بإنارة الطريق بواسطة مشعلٍ كهربائي يدوي على عادة من يتجوّل في الظلام حيث الدروب وعرة وخطرة. لم يكن يسمع شيء بتاتًا ولا حتى وقع الخطى كل شيء بدا هادئًا. وكان الليل يضفي شعورًا بامتداد شاسع لهذه الأرض المعدة للزراعة، حيث تدبّ الحشرات ويسمع حفيف أجنحة الطيور. إنها فعلًا أرض يباب، وضع «دودو سوك» حقيبة المال تحت إبطه الأيسر وأخذ يتبع الساحلي مثل ظلّه؛ كان يمشي حيث سبق لدليله أن عبر قبله، ومن الظاهر أن قلبه كان ينبض على إيقاع سير الساحلي الذي يشير عليه ويدلّه في وسط هذا الضياع. حافظ الرجلان على صمتهما.

بعد أن قطعا مسافة طويلة، دخلا دربًا واسعًا يوصل

إلى تجمع سكني صغير يسكنه بشرٌ أحياء. بدت الأنوار متباعدة وخافتة للغاية حيث يسكن أناسٌ هامشيون للغاية؛ لكنه عالمٌ بشري بامتياز.

- سأتذكر هذه المغامرة! غَمْغَمَ دودو سوك وهو يلتقط أنفاسه..

- وأنا أيضًا! أردف الساحلي وهو يمسح العرق عن جبينه.

وصلا إلى تقاطعِ بين زقاقين، فتوقفا من فورهما. تردد الساحلي قبل أن يدعو رفيقه إلى سلوك دربِ مفضية إلى كوخٍ متوارٍ تحت شجرتي «أفوكا» عملاقتين. كان الضوء يتسلّل من حاجبي النافذة. كانت الجدران غير المطلية تشكّل حيّزًا مرتفعًا كفاية من المفترض أن يدخلاه من خلال باب مصنوع من صفائحِ معدنية متموّجة. رقد على الأرض كلبٌ ضخم تلاحقه الحشرات والبعوض. كان لينقض على الواصلين لو لم يأمره المسؤول الأمني بأن يبقى هادئًا. بيد أنه لم يمتنع عن الوقوف على قوائمه وأخذ ينبح عندما أطلّ «دودو سوك» والساحلي الذي مشى بطريقة خجولة. عرف صاحب الكلب الساحلي وبما أن زيارته كانت معلنة مسبقًا، قام وفتح له الباب. ولج السينغاليان الباب الذي ما لبث أن انغلق عليهما. أدخل مسؤول الأمن الرجلين إلى غرفة صغيرة كناية عن صالة انتظار. بعد قليل فُتح بابٌ على غرفةٍ واسعةٍ في وسطها طاولة كبيرة يحفّ بها صفّان من

الكراسي. كانت الغرفة عارية، لا صور لا زينة لا شيء على الجدران. ومن السقف تدلت لمبة قوية يغلفها حاجب نور أبيض اللون.

جلس ثلاثة رجال بمواجهة الزائرين. كان أمام الرجل الجالس في الوسط علبة معدنية متوسطة الحجم. تدلّت وراءه ستائرٌ بلونٍ أزرق تخفي الشباك والباب في آن. وضع دودو حقيبة المال أمامه على الطاولة بعد أن جلس هو والساحلي وقال:

ـ ها هو المال. أين هي السبائك؟

أخذ الرجل الجالس في الوسط يُعرب عن مدى أسفه وحزنه من أن «دودو سوك» لم يمنحه ثقته وذلك من خلال مرافعة كلامية طويلة قاطعه «دودو سوك» قائلًا إنه لن يسلّمه المال ما لم يشاهد بعينيه الذهب بمقدار خمسة كيلوغرامات. حصل نقاش قصير في ختامه تدخل الساحلي لمصلحة أصحاب المعدن الثمين وطلب من رفيقه أن يثق بهؤلاء التجار. لم يلن «دودو سوك» بل واصل تمنّعه بعناد:

ـ لا مال من دون سبائك الذهب!

في النهاية أسقط في يد الرجل الذي يقوم بمناقشة الصفقة، فأخرج مفتاحًا من جيبه وفتح العلبة المعدنية وأخرج منها سبيكة ذهبية ووضعها أمام «دودو سوك» الذي حملها بيده وأخذ يزنها وفحصها بالأسيد فتأكد أنها أصلية.

طلب منه الرجال أن يفتح حقيبته حتى يتسنّى لهم

بدورهم معاينة المال، عدّه والتأكد من أنه غير مزور. لم يستطع «دودو سوك» أن يرفض لهم طلبًا فأعطاهم بعض الأوراق النقدية ليعرب لهم عن حسن نيته. بيد أنه شعر ببعض التردد والساحلي يحثّه أن يفعل. كان الرجال الآخرون يعترضون على الشكوك التي أظهرها صديق الساحلي. شعر «دودو سوك» بضيق وأخذ يتأمل سبيكة الذهب بينما وضع يده اليمنى على حقيبة المال التي لم يعد قفلها موصدًا. أصبح الساحلي مستعجلًا، أخذ الصندوقة من أمام رئيس العصابة وفتحها بعنف ثم قرّبها من وجه «دودو سوك». لم يستطع «دودو سوك» أن يشاهد أحد الرجال الثلاثة وهو يفرغ حقيبته من النقود. حصل الأمر بسرعة فائقة. أخرج «دودو سوك» سبيكة أخرى من الصندوقة وشرع يشدّ عليها بأصابعه فوجدها خفيفة الوزن بشكل مخيف. غمسها في الأسيد، فذاب الصباغ الأصفر وظهرت طبقة النحاس ذات اللون الوردي. شعر وهو الخبير في هذه الأمور أن نفسه انقطع. وأخرج من حلقه صرخة مدوية وحشرجة. كان ينظر بعينيه الكبيرتين ولا يرى. أخذ يتكلم بسرعة، يخرج من فمه كلمات مبهمة غير مفهومة. أما الآخرون فكانوا لا يفهمون ولم يتحركوا. شاركهم الساحلي في هذا الصمت ثم ما لبث «دودو سوك» أن نبس بوضوح:

ـ أعيدوا إليّ المال! هذه السبائك نحاسية!.

قام «الرئيس» بهدوء وأعلن أنه مستاء، رفع يده اليمنى

وطلب شهادة رجاله الذين أقسموا أنهم هم أيضًا قد وقعوا ضحية لعبة احتيال. وقف الساحلي إلى جانبهم وأقسم هو الآخر أن ما يقوله زعيمهم هو الحقيقة غير منقوصة. أصرّ «دودو سوك» على طلب استرجاع ماله. نظر «الزعيم» الذي أصبح الآن متفهمًا للوضع، إلى جهة اليمين ليدرك أن المحاسب فرّ بالأوراق النقدية. لاحظ «دودو سوك» اختفاء الرجل فاعتلت وجهه الصفرة وخرس عاجزًا عن النطق كلمة واحدة. نظر إلى الساحلي الذي بدا عليه وكأن الموضوع لا يعنيه بتاتًا؛ وأخذ يحدجه بنظرات لا يمكن تفسيرها. ثم قام الساحلي ليظهر حسن نيته وأمر «أسياد المعدن الثمين» بإعادة المال. فقيل له أن يأمر رفيقه بأن يلزم الهدوء. فالمحاسب قد ذهب ليفحص ما إذا كان المال مزورًا أم لا... وفي الوقت عينه سيحاول العثور على المذنبين الذين عبثوا بمحتوى الصندوقة.

«إننا مذهولون ومُهانون»! هكذا وصف اللصوص أنفسهم. والساحلي يكرر أقوالهم ويعتبر أنه مذهول ومُهان هو الآخر أيضًا. طال وقت الانتظار، اقترح «دودو سوك» أن يذهب ويطلب النجدة. قال الساحلي إنه من الأفضل البقاء «لمنع اللصوص من الفرار». أقسم الرجال أنهم لن يتحركوا من مكانهم ولدى عودته مع أو بدون مساعدة، سيحصل «دودو سوك» على السبائك الذهبية الخمسة أو ستعاد إليه أمواله...

طُلب من مسؤول الأمن مرافقة الضيف إلى بداية طريق العودة. أخذ «دودو سوك» يمشي مترنحًا ويصطدم بالنتوءات وتنزلق رجله بين ساقيه وصخرة ويدوس في المياه المتجمعة جرّاء الأمطار الأخيرة. شعر أنه فارغ من الداخل مثل حقيبته وقد أصبح من دون هدف. صعد إلى سيارته واستعاد شيئًا من وعيه حتى يرصد الموقع المؤدي إلى الأرض اليَبَاب.

بعد ساعة عاد ومعه موظفين من السفارة ففتح له المسؤول الأمني الباب المؤدي إلى المنزل برحابة صدر. دخل «دودو سوك» والموظفان إلى صالة الانتظار ثم إلى الغرفة الكبرى. لم يتحرك الرجال من أماكنهم بل مكثوا منتظرين. شعر الساحلي بالارتياح والدهشة في آن. أخذ يقدم «أسياد المعدن الثمين» إلى موظفي السفارة؛ طلب الرجال بعض الوقت حتى يظهر الذهب الحقيقي أم يُعاد المال إلى صاحبه، بيد أن هذه الفترة من الانتظار لم تجدِ نفعًا لأصحاب الحق على عكس النصابين الذين خططوا للموضوع...

اقترح موظفا السفارة أن يعمد الجميع إلى الانتقال إلى أقرب مركزٍ للشرطة. لم يعترض «أسياد المعدن الثمين» البتة.

كانت عملية الانتقال إلى مركز الشرطة رحلة شاقة بكل ما للكلمة من معنى. إذ قامت السيارات بقطع دروب غير معروفة ومن ثم عبرت أزقة توصل إلى حارات غير

نافذة وصولًا إلى حدود منطقة «سورو ليري». ثم وصلوا إلى الطرق المعبدة. توقفت قافلة السيارات أمام أول مركز للشرطة. استمع الضابط المناوب للحكاية من أولها إلى آخرها. كما شرح له موظفا السفارة أن وجودهما غايته مساعدة مواطنين من بلادهما في وضعٍ حرجٍ. قام الضابط المناوب الذي سبق له أن تلقى عددًا من الشكاوى بحق العصابة والساحلي، بوضعهم في السجن. وبينما انهمك في تسجيل حيثيات القضية التي أمامه؛ دخل عليه رجلٌ معرّفًا عن نفسه أنه محامي الرجال الذين أوقفوا منذ قليل. يا للغرابة من الذي أخطر المحامي وطلب منه القدوم في هذه الساعة المتقدمة من الليل؟ من الذي دلّه على هذا المركز بالذات؟ ما حصل أنه تمكن المحامي من دفع كفالة الرجال في الحال مما أسرع في إطلاق سراحهم من وراء القضبان، كما لم يبخلوا على الساحلي بكرمهم الحاتمي فأشركوه معهم في دفع الكفالة وأطلق سراحه.

أمام هذا التطور لم يطلب الضابط المناوب من الذين تطالهم هذه المسألة أن يبقوا وقتًا أكثر من أجل إكمال المعلومات المطلوبة لتدوين المحضر.

الفصل الثاني والعشرون

أطفأ «مورسار» جهاز التلفزيون على آخر مشاهدٍ لفيلم رعاة بقر رومنسي وأخذ يحلم بحقول خضراء وآبار بترول وسماء لا متناهية. لقد أدخل رواد الغرب الأميركي إلى عالمه. أليس هو الآخر رائدًا من روّاد بلاد «بينين» حيث نجح بواسطة مقدراته وحاسته السادسة في مجال الأعمال، في أن يصبح عضوًا بارزًا من جماعة رجال الأعمال؟

في بداياته كان غريبًا عن هذا البلد. لكنه دخل بواسطة الزواج إلى عائلة من عائلات الأعيان. أولاده أبناء شقيقة رجلٍ في طور أن يصبح رجل سياسة. أما علاقاته المتنوعة فهي محطّ أنظار الجميع، بيد أنه في عمق أعماق قلبه يحلم سرًّا بالعودة يومًا وبشكل نهائي إلى السينغال مسقط رأسه.

أما «الصفقة» التي كانت قيد التنفيذ الليلة، فلم تكن الأولى من نوعها في بلاد الأنهار. أما الصفقات السابقة فكانت أكثر سهولة وبساطة. كان أصحاب المعدن الثمين الذين تعاملوا مع «دودو سوك» بواسطة الساحلي، في طريقهم إلى «كوتونو» حيث تعقد معظم الصفقات. غلبه

النعاس، فاستلقى رجل أعمال كوتونو على أريكة مريحة واستسلم إلى أحلام الوسن. رأى نفسه في الفيلا الضخمة والفخمة التي شرع يبنيها في قريته السينغالية على ساحل الأطلنتيكي. كانت الباحة مغروسة بشجر النخل الضخم والرمل الناعم باللون الوردي والأبيض المليء بالأصداف. تأتي اللجج وترتمي على أقدام التلال التي تحيط بالفيلا من كل جانب. كان «مورسار» يجول في فيلته ومعه أحد أعيان بلاد الأنهار، عندما استيقظ؛ وجد أن الساعة الرقمية قربه تشير إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. شعر باضطراب شديد وعزا ذلك إلى التعب الذي انتابه. نهض وأخذ يتمشّى ليزيل الخدر من أطرافه. وبالرغم من انشغاله في الرياضة لم ينسَ أن «دودو سوك» و«الساحلي» لم يعودا من مهمتهما.

- لا بدّ وأن مكان اللقاء بعيد جدًا ويصعب الوصول إليه في الضواحي البعيدة... أم أن «دورو سوك» والساحلي أجبرا على انتظار التجار الذين اعتادوا على التأخر مدة نصف ساعة كما في أثناء حقبة الانتداب...

بعد أن استعاد «مورسار» وعيه بشكلٍ كاملٍ، جلس في مقعدٍ وثير وأخذ يستمع بمساعدة راديو متنقل إلى «صوت أميركا». هذه الإذاعة التي تشق المحيط لتصل إلى القارة الأفريقية وتبث أخبارًا لاهثة فيها طعم الرطوبة.

يلمس «مورسار» المفاتيح، فتسجل الشاشة موجات إذاعية أخرى فيسمع عبارات بمختلف اللغات: العربية، السلافية، الإسبانية، الإنجليزية. تشكّل أفريقيا في ساعات الليل لوحة موزاييك من الألسنية واللهجات، تصعد وتهبط في أصوات نبرتها غريبة للغاية. إنها زخّة مطرٍ جديدة تجد طريقها وسط الأمطار الهاطلة بسحب الفصول ونسبة الارتفاع عن سطح البحر. إن الغابات الساكنة والسهول الناشفة تتلقف كل هذا المطر والإرسال اللاسلكي وتمتص كل شيء.

لم يكن «مورسار» من الذين يطلقون أفكارًا فلسفية حول بلادهم في ساعات الليل الدامس. حتى ولو كان الليل هو ليل مدينة «لاغوس»، المدينة المميزة حيث نجد بعض السحرة ممن يتمتعون بموهبة العرافة. فالعرافة التي يؤمن بها هو هي عرافة كامنة في مكانٍ آخرٍ.

كان ينتظر سبائك الذهب التي تشكل رأسمالًا سيزاد إلى ثروته الضخمة. كلّما زاد رأسماله؛ كلّما زاد أمله في سرعة العودة إلى قريته السينغالية المتواجدة على ساحل المحيط. حتى ذلك الحين ستساعده إنجازاته في بلاد «بينين» على توطيد صلاته بمجتمع رجال الأعمال. ساوره بعض الخوف، عندما حصلت أحداث وخضات سياسية في «كوتونو»، من فقدان بعض الصداقات المتينة المقرّبة منه. فهو لا يخشى من الذين سيكونون في سدّة الحكم بل

من رجال الأعمال بين منافسيه الذين يعتبرونه محظوظًا وله امتيازات أكثر منهم. في ظلّ هذه الظروف حيث يُحكم على الصداقات، التمس «مورسار» خطة أن يكون حذرًا بشكل دائم.

بعد أن تعرضت الحكومة الجديدة لضغوطات من قبل أحزاب وطنية تدعو إلى تأميم كل ما يملكه الغرباء، أخذت تراقب أعماله. فقام مدعي عام الدولة بمراجعة أملاكه العقارية من دون إنذار مسبق، كما جرّد من بعض الصفقات المعقودة مع الدولة في مناقصات شرعية بيد أن الحكومة اكتشفت أن خزينتها لا تزال تدين لشركة «مورسار» بمبالغ طائلة. لذلك فَهِمَ أسيادُ الحكومة الجديدة أن عليهم مواصلة التعامل مع شركاته بعد أن تأكدوا من أن الدين لا يمكن محوه بكل بساطة لذلك عفوا عن «مورسار» وأعماله. وكُمّت أفواه حسّاده.

اعتاد «مورسار» على العيش على شفير الهاوية في جوّ من الريبة فهو رجل يتمتع بشجاعة كبيرة بيد أنه لم يكن متهورًا. ولو أنه يكنّ محبّة كبيرة للبلد الذي تبنّاه؛ فلم ينسَ أبدًا أنه لا يزال مجرّد أجنبي. ليس مجرد أجنبي عادي بما أنه نجح بواسطة دهائه وعمله الدؤوب...

كان «مورسار» مغرمًا بالسلع التي تغصّ بها متاجر «لاغوس». فاشترى عددًا كبيرًا من آلات التصوير وعرض

الشرائح المصورة السلبية والكاميرات الصوتية. جهّز في منزله في «كوتونو» مختبرًا محترفًا يسمح له بالقيام بأعمال مونتاج للصور التي كان يلتقطها في رحلاته المختلفة.

أما هوايته الثانية فكانت جمع الأسلحة الفردية مع نسخٍ عنها مصغّرة. فوضع في إحدى الغرف مجموعة من المسدسات من مختلف العيارات، قبضات أميركية فولاذية، عصي في رأسها حربة، سكاكين وخناجر مغربية ذات مقابض منحوتة، سيوف قديمة من فرقة الخيالة الفرنسية المعروفة باسم «سباهي» التي لم تعد موجودة في عصرنا الحالي.

عندما كان يذهب إلى «لاغوس» التي لم تنظف نهائيًا من مخلفات الحرب الأهلية، كان «مورسار» يأخذ أقصى درجات الحذر، فيحمل معه في حقيبته قبضة أميركية فولاذية وخنجرًا ويدسّ مسدسًا في حزامه.

كان غالبًا ما يقول: «ما أسرع حصول الحوادث»! خاصة في بلدٍ حيث لا نتكلم لغته بطلاقة. قد يكون أي سبب ولو بسيط شرارة لوقوع حادثة. من الأفضل أن يتحسّب المرء لكل طارىء. وبما أن كل شيء ينتهي إلى تسوية من الأفضل أن نكون في الوضع الأقل خسارة من وضع الخصم...

الفصل الثالث والعشرون

أشارت الساعة الرقمية إلى الثانية إلّا ربعًا؛ أدرك «مورسار» بفطرته أن مكروهًا حصل لـ«دودو سوك» والساحلي في رحلتهما إلى أرض اليباب في ضواحي «لاغوس» المشبوهة.

بعد أن تفقّد تَرَسَانَتَهُ أطفأ الأنوار واتجه نحو سيارته المركونة في الخارج قرب جدار الفيلا. انطلق بالسيارة وما لبث أن دخل في طريق «سوروليري» حيث بدأت السيارات تتكثّف لكن لم يشتدّ الزحام بعد. إلى متى ستدوم هذه الحالة؟ لأنه قبيل الخامسة بقليل ستحتشد العربات القادمة من كل حدبٍ وصوب وتبدأ بالفرار من إشارات المرور ومصابيح الإنارة التي تنطفىء وتضيء.

غادر «مورسار» هذا الشارع بسرعة حيث لا تعرف الراحة سبيلًا، ودخل شارعًا متعرجًا بُنيت على جانبيه منازل هادئة. منعطفٌ آخر ويدخل في طريق فرعي من دون عناء إلى منزل «سيريني ندوغال» البطريرك. لم يستطع مقاومة رغبة إيقاظ صديقه القديم الذي كان ينام قليلًا ويمضي ليله يقرأ كتب الفلسفة ويصلي.

شاهد «مورسار» خيوط الضوء تتسلل من النوافذ الخضراء فتتحول إلى ضوء قوي بسبب الليل الحالك. دفع الباب ودخل المنزل حيث وجد الشيخ الجليل جالسًا وكأنه ينتظر قدوم أحد الزوار وهو يراقب وعاء الشاي يغلي على النار. نهض ليحتفي بقدوم صديقه وقال له بكل هدوء:

ـ كنت على يقين أنك ستحضر...

علم «مورسار» أن الرجل العجوز يملك موهبة النبوءة منذ زمن بعيد فقال له:

ـ لم أكن أود أن أزعجك في مثل هذه الساعة من الليل بيد أن الأمر أقوى مني... لقد أتيت بطريقة آلية إلى منزلك...

قاطعه الآخر بجلال:

ـ تعلم أنني أسهر عليك حتى ولو كنت في عداد النائمين!... هل لديك شكوك بشأن أحدهم في الوقت الحاضر؟ تبدو وكأنك في حالة من الضيق. تناول كوب الشاي الأول من دون سكر[1] ودعني أنهي قراءة صفحة من كتاب كنت شرعت في قراءتها عندما أوقفت سيارتك...

لم يكن «مورسار» متضلعًا في الثقافة الدينية الإسلامية

(1) في موريتانيا وفي السينغال يشربون أول كوب شاي من دون سكر.

بل كان يؤمن ببعض الماورائيات الصوفية، خليط من التعاليم القرآنية والممارسات الوثنية الأفريقية الإحيائية. كان غالبًا ما يعود إلى صديقه العلّامة الذي يقوم ليلًا ببعض أعمال العرافة من خلال مطالعته لبعض الكتب الثيوصوفية وحسابات القبالة فيقدم على قراءة الطالع والتنبؤ بالمستقبل. كان يعرف أنه لو جمعنا مصدرين للعلوم فهذا سيعود بالنفع العميم لا ريب في ذلك. لقد اعتنقت زوجته الدين الإسلامي وهي سليلة عائلة عُرف عنها المدافعة بحماس عن الدين الوثني التقليدي. كانت لتصبح في وسطها الأصلي كاهنة، ومسؤولة أيضًا عن معبد. تقوم ببضع حركات وطقوس، بينما يقوم المريدون بتلاوة صلوات تستمطر السماء حتى تروي السهول الخضراء، لكيما تنبت البطاطا الحلوة والدقيق. إنها تفتتح احتفال الزيّاح الذي يرافق الشمس التي تعود إلى مرتعها في «بحر الخصب». صارت الآن زوجة «سوداني شمالي» مُسلمٌ اعتنقت دينه ولم تشعر أنها قامت بخطوة ناقصة في مسيرتها الدينية.

ألم يتأقلم الشيخ العلّامة هو أيضًا مع تقاليد ونمط حياة بلاد الأنهار؟ هو من المتحدر من ثقافة تعلّم الشاب منذ سنّ اليفاع أن يكون مسالمًا متسامحًا. وقادرًا على التعايش مع كل أنواع الحضارات والمذاهب والمشارب في هذه الفيدرالية حيث يفقد الحوار أحيانًا.

أخذ «مورسار» يتجرع الشاي بهدوء وما لبث أن وجد

بعض السكينة والراحة الداخلية. شعر أن ثمة خيطًا رفيعًا من الراحة يجتاحه من رأسه حتّى أخمص قدميه، فيتحرر شيئًا فشيئًا من الكابوس الذي كان يضغط عليه ويثقل صدره. انتهى البطريرك من المطالعة، فوضع كتبه وسبحته جانبًا. استدار نحو زائره الذي أطرق يفكّر وقال له:

- أنا مستعد لمرافقتك... أنت ذاهب لتبحث عن «دودو سوك» والساحلي؟

انتفض «مورسار» مشدوهًا، فتابع الشيخ الجليل قائلًا:

- لا تنبس بحرف! كل شيء جائز الحصول! أنا أعرف أنك مؤمن!...

الفصل الرابع والعشرون

بعد تبادل هذا الحديث الغريب، جلس الرجلان في السيارة وهما يلتزمان الصمت، كان «مورسار» مضطربًا بيد أنه آثر عدم طرح الأسئلة. شعر البطريرك بمدى الحيرة التي تجتاح صديقه فأخذ يرفّه عنه ويخبره قصصًا مرحة ومسلية سمعها عن زواره نهارًا. بعض أبطال هذه القصص هم من الرجال والنساء من معارف «مورسار» الجدد. فلم يسع رجل الأعمال أن يكتم شهقات الدهشة وحتى الضحكات التي تجعله يتلوّى على مقعده وهو ممسك بمقود السيارة.

قطعا على هذا النحو مسافةً طويلة بعيدًا عن مكان إقامتهما، ووصلا على مبعدة من فندق «مايلاند». لم يكن الوقت وقت زحمة، سلكا طريقًا إلى مجمع بنته البلدية؛ يسكن في مبنى خلفه ثلاثة مواطنين سينغاليين من موظفي السفارة. نجد وراء المجمع مبنى من طابق واحد تحيط به جدران متينة عمدت الشرطة إلى تحويله إلى مركز قيادة لها. كانت مصابيح ذات إنارة قوية تضيء المنطقة، كما رُكِنَتْ سيارتان وسيارة إسعاف على أهبة الاستعداد للانطلاق في أي وقت. كانت سيارات الأجرة وسيارات خاصة توصل جمعًا من النساء والرجال يتحركون بسرعة ويتحدثون

بأصوات حادّة. لكن متى صرت في الداخل تلاحظ أن الضوضاء خفتت. في الواقع كانت الجدران التي تمتص الأصوات كيفما اتفق تبقي عليها مكتومة. أعجب «مورسار» بالقصة الأخيرة التي تلاها عليه البطريرك فأخذ يعلّق على موضوعها بشكلٍ ساخر، لكنه ما لبث أن لاحظ أمام مركز الشرطة سيارة المرسيدس البيضاء التي يقودها «دودو سوك»؛ مركونة بين السيارات. صمت فجأة، خففّ من سرعته، أنزل زجاج النافذة، دفع برأسه إلى الخارج وقرأ بصوت مرتفع رقم السيارة.

ـ إنها سيارة «دودو سوك»! صرخ وهو يوقف سيارته.

سأل البطريرك ما إذا كان «دودو سوك» قد استقل سيارته لموافاة تجار المعدن الثمين في اللقاء المرتقب. أجابه «مورسار» أن نعم. خرج الرجلان من السيارة. شاهدا قرب سيارة صديقهما، سيارة مرسيدس لونها رمادي معدني وسيارة رينو 16 لهما لوحات دبلوماسية. عرفا حالًا أنها سيارات موظفَي السفارة اللذين يسكنان قرب المبنى البلدي. اقترب الرجلان من مركز الشرطة، ولدى وصولهما إلى باب المدخل سمعا وسط الصخب صوت «دودو سوك» وسمعا أيضًا صوت الساحلي وموظفي السفارة وهم يلهجون بلغة إنجليزية لا بأس بها تتخللها ألفاظ ولكنة قبيلة الـ«يوروبا». لا بدّ وأن التفاهم بينهم وبين الشرطيين جارٍ على قدم وساق لأن الحديث يأخذ مجراه بشكلٍ منتظم. أما الحشد أمام مختلف المكاتب فإن دلّ على شيء، فهو يدلّ على

كثرة القضايا والمشاكل. المدعي والمدعى عليه، الكلّ يتخاطب بنبرة عالية. أما الموظفون الذين يتلقون الشكاوى فلا يسعهم البقاء على الحياد. كان الشرطيون باللباس الرسمي يتدخلون أحيانًا للفصل بين متنازعين وقد تشابكوا بالأيدي؛ يفصلون بين المتخاصمين لبرهة ثم لا يلبث الصراع أن يتأجج من جديد.

دخل «دودو سوك» والساحلي بالإضافة إلى موظفي السفارة إلى غرفة، حيث طلب منهم مفوض الشرطة الجلوس. جلس قبالتهم التاجران بصحبة المحامي. أخذ المفوض يقرأ الإفادات المتناقضة. كان المحامي يعمد إلى شرح بعض النقاط العالقة والتي دوّنها على مفكرته الصغيرة.

وصل «مورسار» برفقة البطريرك، فطلب موظفا السفارة أن يفسح لهما في المجال. عرف مفوض الشرطة من فوره أن القادم هو البطريرك فنهض باحترام لتحيته. قدّم له «مورسار» معرّفًا. قام أحد موظفي السفارة وانتحى بالقادمين جانبًا وأخذ يخبرهما بتفاصيل ما حصل.

طال الجدال وأصبح أكثر تعقيدًا والشيخ الجليل هادىء يحصي حبوب سبحته. بقي «مورسار» إلى جانبه هادئًا من دون حراك، جذعه متصلّب، وعيناه في نصف إغماضة وكأنه في بداية الوسَن. قلبه يدق بشدّة. في نهاية المواجهة، بعد أن فرغ موظف السفارة من تلاوة الأحداث، توجه البطريرك بكلامه إلى «مورسار» قائلًا:

ـ اللّه يجرّب المؤمنين! النبي محمد (صلى اللّه عليه وسلم) تعرّض لأمرّ التجارب في حياته، بيد أنه لم يستسلم يومًا لليأس أو للكَمَد. لا تحصل التجارب إلّا مع الذين يحبهم العظيم الكليّ القدرة!

صحيح أن ثروات هذا العالم لا يستهان بها... إنها تساعد على وضع الإنسان في مكانة أفضل ليمارس دينه ويقوم بفعل الخير على هذه الأرض. لكن ما هي ثروات هذه الدنيا أم تلك التي تنتظر المؤمنين في الجنّة؟ غالبًا ما يفكّر الناس على الأرض في الحصول على أشياء، ويبذلون كل قواهم لامتلاكها. فيحصلون على مبتغاهم في نهاية المطاف، لكن تحصل حادثة ما، أو يأتي المرض أو حتى الموت فيحرمهم من الاستمتاع بها! من يدري أن هذه السبائك الذهبية والتي كنت ستصبح ملكًا لك هذا المساء، سوف تزيد شيئًا على ثروتك وعلى سعادتك؟...

ما حصل معك في هذا المساء مؤلم فعلًا، أنا أوافق معك، ولكن أليس من الأفضل أن تخسر مالًا من أن تحصل لك مصيبة أو كارثة على أفراد عائلتك؟

كان البطريرك يتكلم ويعظ ومع كل كلمة تخرج من فيه كان «مورسار» يدخل بكل اقتناع في حالة من الانتشاء. تصعد أجفانه وتهبط ببطء في حالةٍ من خدرٍ لا وصف لها. انتهى الأمر بالبطريرك وأدرك ماهية الواقع. نادى صديقه ثلاث مرات ولم يجد منه جوابًا. أمسك بمعصمه وهزّه من

كتفه، فسمع زفرة وكأنه يعود من الأعماق السحيقة بعد أن أطلق سراحه. حاول «مورسار» أن ينبس ببضعة كلمات بيد أن حركة شفتيه لم تفضِ بكلمة واحدة. فتح عينيه وأخذ يجول بطرفه في الأرجاء، يرمق ما حوله.

نجح في أن يتكلم ولم ينبس سوى بتساؤلات. أين هو الآن؟...

من هؤلاء الناس في حركة دائمة، ولماذا «دودو سوك» والساحلي يقومان بحركات غاضبة ساخطة ويائسة؟ ماذا يفعل هو، رجل الأعمال في «كوتونو» في بلاد الأنهر؟ ما هي المشكلة التي أوصلته إلى مركز الشرطة؟

لم يستطع «مورسار» أن ينجو من هول الصدمة والمفاجأة. هل وقع ضحية صدمة عصبية صار بنتيجتها عاجزًا عن تحريك جسده؟ وعلى ما يبدو؛ لم يفقد بعد ردّات فعله. فتح عينيه، لا زال جالسًا لم يسقط بعد، إنه يتنفس بسرعة بيد أنه ليس مصابًا بعلّة ما. سيكون من الأفضل أن يهرع أحدهم ويقوم بمساعدته على النهوض؛ يرافقه إلى حيث أوقف سيارته ويقنعه بوجوب قيادتها.

انتهت التحقيقات وانتهت معها الشكليات الإدارية، انضم «دودو سوك» والساحلي إلى البطريرك و«مورسار». أخذ الساحلي يحاول أن يشرح ما حصل، رمقه رجل الأعمال بنظرة جامدة وعجز عن نطق كلمة واحدة على

الأقل... هل كان يصغي فعلًا للحديث الذي كان يدور على مسامعه؟ اقترب أحد أصحاب «المعدن الثمين» من المجموعة، اقترب محاميه أيضًا. بدا عليه أنه ممتعض بالفعل وحلف أنه هو أيضًا تعرض لعملية احتيال. أقسم اليمين أنه سيفعل ما بوسعه ليضع يده على المحتالين، ويتعهد بجلب الذهب أو الأموال في مهلة معقولة.

أعطى البطريرك الأمر لإنهاء هذه المحادثة المؤلمة واتجه السينغاليون إلى فيلا رجل الأعمال. طلب البطريرك إلى «دودو سوك» الذي يتحرّق سخطًا أن يسهر برفقته على صحة «مورسار» عندما ينام. بهذه الطريقة سيحول العجوز دون وقوع الضحية «دودو سوك» في حالة من اليأس والانهيار وقد بدأت معالمها ترتسم على محيّاه.

عاد موظفا السفارة بعد أن عيّن موعد اللقاء، كما عرضا على البطريرك أن يقيم الساحلي معهما حتى لا يتخلّف عن موعد الاجتماع. وكان القرار أن يلتقي الجميع في اليوم التالي في مبنى المستشارية. كتب الضابط المناوب تقريرًا بهدف تقديمه لرئيسه. شعر فجأة أن ثمة خطبًا ما وهو يطالع ما فرغ من تدوينه فالمعلومات بلغت درجة عالية من التناقضات.

أحجية كبيرة للغاية؛ مسألة معقّدة تبشّر بمبارزة قضائية طويلة الأمد! هذا إذا سمح للعدالة بأن تنظر في القضية...

الفصل الخامس والعشرون

غاص «مورسار» في نوم عميق بسبب التعب. أمّا «دودو سوك» فقد أصابه البكم المؤقت. لم يستطع مهما حاول أن يشرح للعجوز الذي طفق يراقب إبريق الشاي على النار، كيف حصلت المسألة في ذلك المنزل الواقع في الأرض اليباب. تغضنت تعابير وجهه. نجح منذ ساعة في لفظ جملة واحدة لا غير. ورفيقه العجوز يرتع في هدوءٍ لا نظير له وهو يلهو بسبحته ويراقب الشاي في طور الإعداد، شاي بالنعناع يتناوله مع الخبز المحلّى وهو المفضّل لديه بين كل المشروبات.

ـ نبس الرجل: «سيريني ندوغال» أنت تعرفني...

أما بقية الكلام فكان يضيع في زفرات صاخبة. أخذ العجوز يقوم بهزّ رأسه ورَبَتَ عدة مرّات على كتف صديقه في محاولةٍ لتهدئة الرجل وجعله يتمالك نفسه. يصمت «دودو سوك» لبرهة، ينطرح على الديوان الذي كان يجلس عليه. ولكن لن يستلقي سوى لوقت قصير. ينهض فجأة، ينادي للبطريرك بصوتٍ مختنق وكأنه يُطارد من قبل عصابة صاخبة.

انقطع نفسه، عيناه صاغرتان مثل رجلٍ خَبِلٍ. عند هذا الحدّ يقوم الشيخ القديس ويضغط على جبين الرجل الهاذي بطريقة محترفة كما لو أنه يلهو بسبحته. يتنفس «دودو سوك» بعمق ويقول بكلامٍ مفهوم متسائلًا:

- كيف لي أن أنظر في وجه «مورسار» بعد الآن؟ ماذا سيقول عنّي؟

كان العجوز يطيّب له خاطره ويطمئنه مذكّرًا بأن مورسار رجلٌ جلود يتحمل قضاء اللّه وقدره. يغمض «دودو سوك» عينيه وهو يتأرجح بين تصديق ما يقوله له العجوز وبين عدمه، ثم يعود ويستلقي بينما العجوز يستعد لانتفاضة عصبية أخرى تصدر عن «دودو سوك».

انصرم الليل على هذا المنوال، لكن في النهاية استسلم «دودو سوك» للتعب الذي نال منه، انتزعه الوَسَن من الندم والحرج اللذين يتآكلانه ويرميان به في عالم الكوابيس القاتلة حيث نزاهته وشرفه قد تعرّضا لانتكاسة كبرى وصارا في الميزان.

في صباح اليوم التالي وعند الساعة السابعة والنصف، دقت بائعة المأكولات باب الفيلا؛ فلم تتفاجأ برؤية البطريرك يحمل الأواني المعدّة لسكب عصيدة «المانيوك»[1]

(1) المانيوك: جنسٌ من الحبوب يستخرج منه دقيق نشوي.

والصلصات المعدّة بزيت النخل، والبامية واللحم. فاحت رائحة قهوة ساخنة منعشة في أرجاء المنزل، ولو أن الشاي بالنعناع يبقى الشراب المفضل لدى المجموعة، لا يمكن الاستغناء عن القهوة بالحليب فهي شراب مقدس في الصباح الباكر. فإذا لم تشرب القهوة بالحليب مع شطائر مفعمة بالزبدة يصبح الأمر حرمانًا!..

عندما جهز الفَطُور، دخل «البطريرك» إلى غرفة «مورسار» فألفاه يغط في نومٍ ملائكي. أيقظه بهدوء متحاشيًا أن يقوم بحركة مداهمة. نهض الرجل وكأنه يدخل في جوّ الصحوة وأخذ يتمطّى بهدوء وفتح جفنيه وكأنه يرفع بهما كل أثقال الليل. ارتسمت على محياه ابتسامة بريئة وظهر شاربه المشذّب بعناية والمتصل بلحيته التي تضفي عليه صورة رجلٍ مجرّب ومحترم.

أعلمه البطريرك أن الشمس عمّت الصالة والشرفة. كان «مورسار» معتادًا على النهوض عند الخامسة فجرًا حتى يتوضأ استعدادًا للصلاة، نهض من السرير وأخذ يبسمل ويذكر اسم اللّه، ثم دخل الحمام. فرح العجوز بعودة صديقه إلى وعيه، ثم ذهب إلى الصالة عند الأريكة حيث رقد «دودو سوك» وحيث تحرر من هواجسه من خلال طرح الأسئلة. نهض الصائغ بدوره واتجه إلى دورة المياه الأخرى.

بعد أن ارتدى «مورسار» ثيابه، انضم إلى «البطريرك»، جلسا على الشرفة إلى طاولة الفطور، حيث وقف الخادم على أتمّ استعداد لخدمة أسياده. كان رجل الأعمال يسعد كثيرًا باستنشاق الهواء الصباحي المنعش ويفرح بقطرات الندى التي تغمر أوراق شجرة أفوكا عملاقة. أسند مرفقه إلى الحافة التي تفصل الشرفة عن الباحة؛ وطرح السؤال على العجوز حول الذي حصل البارحة لدى وصولهما إلى مركز الشرطة. في ذلك الوقت ظهر «دودو سوك» ومدّ يده لمصافحة «مورسار» تحتَ أنظار العجوز المباركة. ثم جلس الثلاثة حول طاولة الفطور. أخذ العجوز يشرح القرآن الكريم متكلمًا عمّا يخص الحياة الاجتماعية وشدّد على تنوّع طبائع البشر. فالإنسان مصنوعٌ من رغبات وأحلام قد تصل إلى حدود الهلوسة. وعندما يتصرف بطريقة خاطئة ويحاول تبرير أفعاله تحت غطاء تكبّرٍ لا حدود له، يكون قد اقترف إثمًا.

- إن التواضع، أردف العجوز، لهو علامة الإنسان المتزن. فهو الذي يسمح بوضع الأشياء في نصابها ويجعلها في ميدانها القويم. وتابع قائلًا: إن الحلول المتسرّعة غايتها تودي إلى الندم. ألا يقول «الولوف» في السينغال ما يلي: «قلة الصبر والتسرّع ينجبان ولدًا يدعى: الندم».

وأخذ العجوز العلامة يعطي أمثلة حيث النبي محمد (صلى اللّه عليه وسلّم) تمكن من كبح جماح تهوّر عدد من

مريديه، كل ذلك بواسطة تواضعه وسعة صبره. وبعد ذلك تبيّن أنه محق مما آلت إليه الظروف.

خرج «مورسار» عن صمته وقال إنه لا يحقد على «دودو سوك» فهو مقتنع تمامًا بنزاهته، بيد أنه يجد من الخفّة أن يدع «دودو سوك» يسلّم قياده إلى الساحلي وهو الرجل الذي بدون ضمير ولا يردعه لا القانون ولا مخافة الله. فهو يذكر جيدًا أنه تخلى عن صفقات عديدة كان الساحلي فيها يلعب دور الوسيط. وبينما كان الحديث يجري على هذا المنوال سمعت ثلاث نقرات من زمّور سيارة، فعُلِمَ على الفور أن أحد موظفي السفارة قدم إلى الفيلا بحسب الموعد المضروب في الليلة السابقة. طلب منه ربّ البيت الجلوس معهم إلى المائدة، فجلس وأخذ يشرب فنجان قهوة مُرّة، بينما تابع الجميع تناول طعامهم. أعلمهم أن الساحلي في طريقه إلى المستشارية برفقة الموظف الثاني في السفارة.

ركب «مورسار» بسيارته وجلس العجوز العلامة إلى جانبه، بينما ترك «دودو سوك» سيارته مركونة أمام الفيلا وركب إلى جانب موظف السفارة، انطلقت السيارتان ودخلتا في جحيم زحام السير التقليدي في «لاغوس». ستستغرق الرحلة ساعتين على الأقل ليصلوا إلى منطقة «فيكتوريا آيلند» حيث تقع المستشارية.

الفصل السادس والعشرون

تتفرّع طريق «أبايومي رود» من خلال منطقة «فيكتوريا آيلند» لتمتدّ واسعة ومعبدة. ويظهر من خلال مخطط المهندسين الذين صمموا مسارها أن ثمة رغبة لديهم في جعل عاصمة الفيدرالية مختلفة عن المدينة القديمة في تصميمها المدينيّ.

تلفت الفيلات من على جانبي طريق «أبايومي رود» الأنظار بطريقة تصميمها البعيدة كل البعد عن الهندسة المملّة، إذ نجد فيها نفحة معمارية جديدة وهي ثمرة أبحاث لا محدودة. تقع المستشارية وسفارة «زائير» قرب سفارة اليابان التي يفصلها بناءان عن سفارة «السينغال». وكان سياج سفارة «السينغال» من جهة الجنوب ملاصق لسفارة «سيراليون». وفي الجهة الشرقية نلاحظ علم الكونفدرالية الهلفتيّة (سويسرا) يخفق مرفرفًا. وإلى الشمال نجد المباني التي تضم سفارة الدانمارك وسفارة السويد وقد بُنيت بحسب الطراز السائد في الاتحاد الشمالي. وقرب فندق «فيديرال بالاس» نشاهد مباني سفارة «ساحل العاج» مثل أعشاشٍ متباعدة على مسافة واحدة تربط بينها جسورٌ معلّقة مشكلةً

منتجعًا متناغمًا. أمّا في موقع السفارة والمستشارية السينغالية، فنجد أن المساحة كبيرة جدًا بيد أنه ومع الأسف الشديد لم تستغلّ هذه المساحة كما يجب من قبل المهندسين الذين أقاموا الأبنية. فمن جهة بدت مساحة السفارة ملائمة، بينما المكاتب فكانت مساحتها عكس ذلك تمامًا وقد تركت مساحة تصل إلى نصف العقار فارغة؛ وألحقت المستشارية بالسفارة.

كانت ناصية السفارة مُشادة على جهة شارع «أبايومي رود»؛ هكذا يفرض العقل والمنطق. بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها؛ تابع الوكيل عملية البناء غير المنتهية وأمر بتشييد جدار فاصل بين المبنيين يستخدم لأغراضٍ عدة. أما المساحة الفارغة فقد استعملت لإيواء الخدم والسائقين ومع ذلك لم يستطع إنشاء حديقة تستطيع إضفاء شيء من الجمال على المستشارية في موقعها؛ كالحديقة الرائعة التي تزينٌ مبنى السفارة.

لدى وصول موظف السفارة برفقة «مورسار»، «دودو سوك» والبطريرك إلى مبنى المستشارية، كان الساحلي ينتظرهم برفقة الموظف الثاني في مكتب هذا الأخير. دخل الرجال الستة إلى قاعة المحاضرات غير البعيدة عن مكتب رئيس الإدارة. حالما جلسوا، انتابت «مورسار» حالة غضبٍ لا توصف عندما لمح الساحلي وقال له:

ـ هناك مسؤول واحد عن الذي حصل! إنه أنت! لا

بدّ وأنك فرحٌ للغاية بعد أن نجحت في عملك! لقد خططت له منذ أمدٍ بعيد!...

شعر الرجل صاحب القبعة العتيقة والسترة الشتوية والنظارات الداكنة بحرج كبير. رفع يده ليقاطع رجل الأعمال. بيد أن هذا الأخير رفع صوته أكثر ونطق بكلماتٍ ذات وقع قوي على إيقاع سريع وعنيف. كما أنه أشار بسبابته إلى رجل يود الانتقام منه ويرغب في سحقه. ومن ناحيته، استشاط «دودو سوك» غيظًا بعد أن تحولت أعصابه إلى كرةٍ من غضب. بدت عيناه وكأنها قاذفات لهبٍ، تقذف بحممها إلى الساحلي الذي حاول صدّ هذا الهجوم الثنائي المؤلف من كلمات مبهمة وجملٍ منقوصة.

حاول موظفو السفارة تهدئة الرجال الثلاثة الغاضبين. أما البطريرك فلم ينفك يردد أمام الجميع:

- إنها عملية تصيب فقط ثروة أرضية! لا تقدموا على عملٍ لا يمكن إصلاحه! بعد قليل ستعود الأمور إلى نصابها وستضحكون. تصرفوا على أساس أنه في المستقبل لن يضطر أحدكم أن يتحاشى النظر في عيون الآخرين!...

صدح صوت «مورسار». كان رئيس المركز قد أعلم بقدوم المجموعة فشرع ينتظرهم في مكتبه. صار الصراخ الآن في الرواق الفاصل بين قاعة المحاضرات ومكتب السفير.

ولدهشتهم شاهد موظفو السفارة «مورسار» يشهر بيد

مسدسًا وبالأخرى خنجرًا مغربيًا. انقضوا عليه ليجرّدوه من سلاحه. أخذ «مورسار» يهدد كالمجنون بقتل صديقه القديم «دودو سوك» والساحلي أيضًا، الذي نعته «بروح الاحتيال والفساد» وقد وقع ضحية له وبعد ذلك سينتحر...

فتح رئيس المركز باب مكتبه وشهد على قسم من هذه المهزلة. ولما تمادى «مورسار» في تهديداته وهو يشهر أسلحته، قال له رئيس المركز ببساطة:

ـ إذا واصلت تهديداتك سآمر بسجنك! هل فكرت بما تقوله؟ هل تريد أن يتناقل مثيرو الشائعات؛ قصة «مورسار» الذي قتل اثنين من مواطنيه قبل أن ينتحر لقاء خمسة ملايين من الفرنكات في بلاد الأنهار؟

بعدما نطق الرجل بهذه الكلمات، ساد صمت رهيب وبدت المجموعة جامدة في مكانها. بدا أن رجل الأعمال استعاد فجأة وعيه. تقدم إلى الأمام مُسدلًا يديه وكأنه يسدد مسدسه وخنجره نحو الحضيض. عندما وصل أمام مدير المركز سلّمه أسلحته بتواضعٍ شديد، فهو يحترم جدًا المناصب.

بدأت جلسة استماع طويلة في مكتب رئيس المركز. جلس موظفا السفارة بالإضافة إلى المستشار الأول، جنبًا إلى جنب المتخاصمين في هذه القضية، وهدفهم التدخل في حال انطلاق شرارة ما.

أوضح رئيس المركز أن هذه الجلسة لا يمكن أن تأخذ

صفة المحاكمة مهما كانت الظروف فهذا ليس من شأن السفارة. كان الأمر مجرّد إعلام ممثل السينغال بمحتويات ملفٌ قد يقوم وزير خارجية الاتحاد بوضع اليد عليه... هذا في حال حصلت محاكمة تتشكل بالطريقة القانونية.

وبما أن «مورسار» هو الذي وقع ضحية الاحتيال، طلب منه أن يشرح ما حصل.

أخذ رجل الأعمال الذي استعاد رباطة جأشه، يتكلم ببطء ويتحفّظ. اعترف أنه سبق له في الماضي أن عمد إلى الطلب من «دودو سوك» ومن الساحلي أن يجلبا له الذهب. كانت الأمور تجري بشكلٍ مبسّط طالما أن عمليات التبادل كانت تتم في حضوره وفي مكاتبه. ومن دون أن يرتبط بصداقة مع الساحلي، كان يدفع له ثمن الوساطة التي تعود إليه بالحق. أما عن عملية التبادل التي حصلت مساء البارحة، فمن الصعب عليه أن لا يلقي المسؤولية على عاتق الساحلي. ولم يكن الساحلي الذي تلقى الأمر بالمفاوضة، ومن ناحية أخرى لن تخطر في ذهنه فكرة أن يسيء إلى «دودو سوك» وذلك من خلال زجّ اسمه مع الساحلي، علمًا أن الصائغ «الكوتوني» قد وقع ضحية الرجل الخبيث. الكل يعلم أن الساحلي مخادع. وستسقط تبعة ردّ المبلغ على «دودو سوك»!

أمّا بخصوص الساحلي فقد طلب «مورسار» أن يُصار

إلى اتخاذ إجراءات بحقه تردعه عن اقتراف هذه الأعمال الاحتيالية، والتي تلطّخ سمعة الجالية السينغالية في «لاغوس» و«كوتونو»، صمت «مورسار» فجأة. أخذت أصابعه بالارتجاف وهو يمسك سبحته التي أخرجها من جيبه الأيمن. بعد ذلك بدأ حديث طويل، والأحداث التي أرادها الراوي مفصّلة تفصيلًا دقيقًا، أخذت تتقاطع وتتناقض في بعض الأحيان. صار الحديث بينهم وكأنه يدور بين أشخاص يعانون من حلم اليقظة، بعض الجمل تختفي وسط ثرثرةٍ مُصِمّة لا تُفهم. ومن حين إلى آخر كان سؤال يُسمع بقوة تفصله مهلة محددة مسبقًا.

فتح «دودو سوك» عينيه فجأة وحدّق بالبطريرك وهو يسأله ما إذا كان يشك بمصداقيته. كان العجوز العلّامة يخفف عليه. ثم أنهى حديثه بطريقة محددة، أنه يتحمّل مسؤولية الحادثة ويتعّهد دفع مبلغ خمسة ملايين فرنك اتحاد أفريقي لرجل الأعمال.

ـ بواسطة ماذا؟ سأل «مورسار» بحدّة وسخرية...

ـ من جنى عملي! ردّ «دودو سوك» بحزم من دون أن ينهار.

ـ ما هي مداخيلك؟ سأله رجل الأعمال...

طلب رئيس المركز أن يلتزم الجميع بالهدوء ومنح نفسه الحق باستجواب من يرغب في حال اقتضى التحقيق ذلك. ثم حان وقت الساحلي الذي طلب من الحاضرين أن

يشهدوا لصالحه خصوصًا من كانوا يعرفونه من وقتٍ بعيد. عندما حلف بشرفه لم يتوان الحضور عن الابتسام. وأخذ يدّعي بتواضعٍ كاذب أنه وقع ضحية أعمال احتيال كالصفقة التي حصلتْ معه الآن وأن هذه الأمور تحصل غالبًا في «لاغوس» المدينة الكبيرة. أما الآن فهو حريص على إنقاذ سمعته كونه مواطنًا سينغاليًا. ما حصل البارحة هو ثمرة الحظّ والمقدّر... وسيسعى بكل جوارحه لاسترجاع الملايين وإعادتها إلى «مورسار».

بدأ الساحلي يهذي. إنه الآن في عالم جنون العظمة. إن خزنته الآن محفوظة في مخابىء قرب البحيرات مطمورة تحت التراب؛ كنوزٌ من الجنيهات الاسترلينية والفرنكات اتحاد أفريقي والنايرات... كما قال أيضًا إن رئيس المجموعة (مجموعة النصابين أصحاب المعدن الذهبي الثمين) أقسم له أنه سيردّ المبلغ في غضون ثلاثة أيام.

أنهى البطريرك هذيان الرجل صاحب القبعة القديمة المتربة. كما طلب من الجميع أن يلتزموا الاعتدال والوعي.

ـ قمتم بعملكم من زاوية الواجب وأدليتم بما يقضّ مضاجعكم أمام ممثل بلدنا، عارضين له الخلاف الذي يقسمكم في الوقت الحاضر. لا شيء عصيّ على الاتفاق من خلال التحاور!...

الفصل السابع والعشرون

ـ إنها معضلة قضائية! هكذا جزم ضابط الشرطة وهو يدوّن تقريره. هذا ما لهج به أيضًا وكيل السفارة السينغالية عندما شرح لأبناء وطنه عن وضعهم القضائي غير القانوني.

ـ في هذا البلد، أردف قائلًا وحده المصرف الفيدرالي يشتري ويبيع الذهب. وهو الجهة التي تحدد الثمن. هل تجهلون ذلك! ألم تتعهدوا أمامي عندما دخلتم هذا البلد أن تحافظوا على النظام وتلتزموا حدود القانون، ولا تخرقوا مصداقية السينغال في بلد الأنهر وفي بينين على حدٍّ سواء!؟؟. ألم تفكروا في الإحراج الذي تسببتم به لقنصليتنا ومدى الخسائر في حال أرادت السلطات متابعة القضية؟

ـ تذكروا أن «مورسار» و«دودو سوك» يحملان جواز إقامة مؤقت في لاغوس مما يعني أنه يمكن إلغاؤه في أيّ وقت؟! يمكن أن تبدأ الملاحقة القضائية على أساس أنه تمّ خرق قانون هذا البلد. إنها جريمة مزدوجة! ففي القضية الثانية ثمّة خرق لقانون الصيرفة. لقد أدخلتم إلى الفيدرالية أموالًا أجنبية بطرقٍ غير شرعية. وأنتم تعلمون يقينًا مدى الشدّة التي تعاقب بها الحكومة هكذا نوع من الجرائم المالية منذ نهاية الحرب الأهلية...

- «في نية «مورسار» رفع دعوى قضائية من خلال السفارة على المحتالين النيجريين الثلاثة. هل يجب أن نذكر حضرته كيف تتمّ المعاملات القضائية بين السفارات والبلدان المضيفة؟»

- «إذا كانت السفارة جاهزة لمدّ يد المساعدة لأبناء وطنها في حالة معينة وهذا ضمن حقوقها القضائية، فلا يعني ذلك أنه يحق لها أن تتدخل في شؤون البلد الداخلية، وذلك عندما يحاول رعاياها تطبيق قوانينهم الخاصة رغمًا عن أنف البلد المضيف...»

- «بعد الأخذ بهذه الاعتبارات، سنحاول أن نعمل سوية على كيفية حل هذه المشكلة التي تؤرقكم...»

عند هذا الحدّ رفع سيرني ندوغال العلامة يده طالبًا الكلام وقال ما يلي:

- نحن نقدم جزيل الشكر للسفارة لأنها أوضحت لنا مقدار سوء وضعنا... كان عليّ أن أقول «وضعكم» أنتم يا أصدقائي! لأنكم أنتم من خرق قوانين البلد المضيف! لن يجدي نفعًا أن نخفي وجوهنا أمام القدر. هذه القضية سيئة بما فيه الكفاية! ومع ذلك يتحتم علينا أن نتخلص من وزرها؛ مع أقل خسائر ممكنة. لذلك أقترح أن يسحب «دودو سوك» بهدوء وبساطة التبليغ الذي أدلى به في مركز الشرطة...

ـ كيف! صرخ «دودو سوك» وقد فاجأه هكذا اقتراح. كانت مفاجأته كبيرة لأن هكذا اقتراح صدر من الإنسان الذي يعتبره صديقه.

ـ اهدأ! أمره البطريرك. عندما تقاطعني تقلّل من احترامك للسفير! نهض مورسار من مقعده ولكن ما لبث أن جلس. أعار انتباهه للعجوز الذي تابع حديثه:

ـ إذا سحبت الشكوى ننهي بذلك محاكمة قد تطول كثيرًا وتكلف مالًا، ولا نعرف ما إذا كانت نتيجتها ستعود بالفائدة على «دودو سوك» أو على «مورسار». وبما أن القانون ليس إلى جانبكما من الأفضل القبول بالتسوية!...

ـ أية تسوية؟ صرخ «مورسار» الذي بدأ يغلي غضبًا.

بيد أن البطريرك واصل كلامه بهدوء:

ـ سنصل إليها بالتأكيد! لنضع في كفة من الميزان حسنات وضعك الحالي، أنت مقاول من أعيان بلاد «بينين»، دخلت في نقابة سائر مقاولي البناء في بلاد الأنهر... وفي الكفة الأخرى، المشاكل التي تنتظرك. لنبدأ أولًا بفقدان الثقة. واللطخة التي ستلحق شرفك كونك مقاولًا من دون أن ننسى الخسائر المادية التي ستلحق بك عندما يُقال عنك إنك مهرب...

ـ أنا شخصيًا سأختار البقاء في الكفّة الأولى! خمسة ملايين فرنك، يا له من مبلغٍ كبير، لكن بالطريقة التي خسرت بها هذا المبلغ...

ـ لم يفقده بعد، أنا أكيد! صرخ الساحلي وكأنه استفاق من غيبوبة طويلة!...

ـ دعوا البطريرك يواصل كلامه! نطق رئيس المركز. نحن كما ترون لسنا في المحكمة.. هدف هذا اللقاء هو حلّ المسألة بما أنكم أتيتم لمقابلتي بملء رغبتكم، وهكذا ستتمكنون من درس الموضوع من كل جهاته حتى نتلافى حصول ارتدادات سيئة على الجالية السينغالية مستقبلًا في هذا البلد...

ـ ما أرغب به فعلًا هو أن نحافظ على اللُّحمة بين أبناء جاليتنا. تابع كلامك لو سمحت يا «ندوغال»!

تابع البطريرك كلامه:

ـ كما كنت أقول خمسة ملايين مبلغ كبير جدًا... لكن الطريقة التي خسرته بها تظهر خِسّة كل متاع هذه الدنيا... بمثل هذه الطريقة نفقد السلطة التي يتمسك بها الإنسان، لأنها تسمح له بالسيطرة على العالم! كل هذا الأمر تفاهة بتفاهة! ولكن هل نفكر كفاية بهذا الموضوع!؟!...

قام السفير وقطع المقابلة لبضع لحظات لأنه كان يتوقع زيارة أحدهم.

مرّ النهار كالعادة في بلاد الأنهار، كان لا بدّ من التوصل إلى تسوية ما قبل حلول الساعة الثالثة...

الفصل الثامن والعشرون

عندما عاد الجميع لمواصلة الاجتماع تابع البطريرك قائلًا:

ـ ... لا أرغب في إلقاء محاضرة جدلية ولا حتى في منحكم درسًا في الأخلاق! همّي الأول هو المحافظة على اللحمة والصداقة في قلب الجالية السينغالية في «لاغوس» و«بينين».

كان صديقنا «مورسار» رائدًا. والذي شاهده يصل إلى «كوتونو» منذ عشرين سنة يستطيع أن يدرك مدى خطورة الدرب الذي قطعه وسط الأفخاخ والكمائن والعثرات من كل نوع ولون. كان عليه أن ينتصر على كل شيء، وأن يجد لنفسه مكانًا خطوة بعد خطوة من دون الإساءة إلى أحد. عرف كيف يتأقلم مع حياة بلد مثل الـ«بينين». وها هي بلاد الأنهر تفتح له ذراعيها بدون شروط. كل شيء يبدو واعدًا. ونحن مقتنعون أنه سيحافظ على شرف بلدنا عاليًا. سيضع صديقنا المقاول بصماته على مشاريع البناء الحديثة...

بيد أن الرائد «مورسار» هو أيضًا مؤمن كبير... وعكس ما يظنه البعض؛ فإن المؤمن المسلم ليس شخصًا

يسلم نفسه للقدر. ليس القدر سوى ابتكار يعلل بعض الممارسات عندما نرفض تحمل المسؤولية. عندما خلق اللّه الإنسان على صورته ومثاله منحه قدرة أن يحلم، أن يقوم ويحقق مشاريع الحياة والجمال. كما وضع بين يديه أدوات للتحكم بمصيره.

أمّا الباقي فهو بيد الإنسان. ففي حال قام هذا الإنسان برمي المعول فلا يعني ذلك أنه استسلم، بل يعني ذلك أنه يستريح بشكلٍ مؤقت حتى يفكر ويتبصّر ويستخلص العِبَر الجديدة ليبذل جهدًا ويتخايل الوسائل التي تمكّنه من متابعة عمله...

في الواقع ما من ديانة على الأرض تبشّر بالاستسلام والخنوع بل إنها تثير موضوع التسامي. ومن ناحية أخرى نجد أن أحد أسس الديانات يقضي بالواقعية، وما معناه أن يتأقلم الإنسان مع واقعٍ معين. وعملية التأقلم هي وسيلة هدفها الحقيقي تحويل معطيات هذا الواقع المعين إلى معطيات أكثر إفادة...

أنا أشدد على كلمة مؤمن لأن صديقنا «مورسار» يملك كل الفضائل والمواصفات التي يتحلى بها رجلٌ مؤمن...

وبينما كان العلّامة يلقي محاضرته، كان «مورسار» المقاول والدائن بالفائدة يضغط بشدّة على سبحته. كان يتلقى كل حرف يقوله العجوز النبيل؛ متأثرًا بقوة كلام ذلك

المتنوّر القادم من بلاده. كان العجوز مدركًا لمشاعر «مورسار» فواصل تحديقه في عيني هذا الأخير.

كان «دودو سوك» مدخنًا مدمنًا فلم يستطع تحمّل حرمانه من السجائر، لذلك أخذ يضغط أصابعه، محاولًا الاستعاضة عن السيجارة بمضغ علكة؛ من دون أن يتوقف.

تابع العجوز قائلًا:

ـ أنا لا أطلب من «مورسار» أن يقول في سريرته: ما حصل قد حصل! كلا، أنا أدعوه إلى فحص الحادثة بهدوء ووعي، وأن يفكر بكل الوسائل الشرعية والسلمية التي ستساعده على استرجاع ثروته! وعندما سنتمكن من الكلام، سيصبح من الممكن لنا أن نجد حلولًا لكل أنواع المشاكل!

طلب «دودو سوك» الكلام. صار كلامه مفهومًا وصوته واضحًا:

ـ ما يقوله البطريرك لا غبار عليه! هذا ما يقوله دائمًا، هناك مسؤول واحد في هذه القضية وهو أنا!... قلت إنني سأعيد المبلغ إلى «مورسار»؛ خمسة ملايين فرنك اتحاد أفريقي التي كان قد عهد بها إليّ... لن أطلب ظروفًا مخففة ولن أهرب خلف القدر والحظ! أردت أن أسدي له خدمة كما كنت أفعل غالبًا. لم يكن الحظ إلى جانبي... بيد أن «مورسار» شكك في نيتي وعزمي على المواجهة. طلب

مني أن أشرح له كيف سأدفع لأحترم ما تعهّدت به إليه! إيه طيّب! سأدفع من ثمرة عملي!

ـ هل لديك أيّ عرضٍ مادي؟ قال له السفير.

ـ هاكم عرضي سيدي السفير! إنه مشغلي في «كوتونو» الذي يدرّ عليّ مائة وخمسين ألف فرنك اتحاد أفريقي في الشهر. سأعمل على مضاعفة الأرباح من خلال مضاعفة وتيرة العمل. في ظلّ هذه الظروف، وبعد اقتطاع ثمن المواد الأولية والمصاريف، سيكون بمقدوري أن أدفع شهريًا مئة ألف فرنك لـ«مورسار».

انتفض المقاول الذي كان حتى الآن يلهو بسبحته:

ـ وكم من السنوات ستبقى تدفع لترد لي الخمسة ملايين؟... صرخ بوجهه...

ـ الوقت اللازم ابتداءً من أول دفعة شهرية! أجابه «دودو سوك» ولم يرفّ له جفن.

بعد ذلك ساد الصمت... كسره المقاول وهو يسأل «دودو سوك» أن يعدد أمام الجميع محتوى مشغله، فانبرى هذا الأخير وهو متضايق قليلًا، يعدد محتويات مشغل كوتونو. فعرض السفير أن يقام هذا التعداد في «كوتونو» بحضور الطرفين المتنازعين.

عاد «مورسار» إلى التوتر، وقال إنه سيصادر هذه

المحتويات، فأفهمه السفير والبطريرك أن هذه المصادرة ليست الحل الأمثل. فبدون الأدوات لن يتمكن «دودو سوك» من العمل وبنتيجة ذلك لن يرد المال الذي تعهد بردّه إلى صاحبه!

بقي الأمر عند هذا الحدّ. طلب السفير أن يجد الأطراف الحل بمساعدة «سيريني ندوغال» بما فيه خير الجميع.

تواعدوا على اللقاء في يوم غد. أما الساحلي فكان يعلن بصوت مرتفع في الرواق أن التجار الثلاثة سيعيدون في الأيام المقبلة المال المسروق من دون نقصان.

الفصل التاسع والعشرون

في اليوم التالي، وصل إلى السفارة عددٌ من الرجال: «مورسار» المقاول، «دودو سوك» الصائغ والساحلي وعلى رأسهم البطريرك. كانوا هادئين. كان ثمة راحة نفسية تظهر على وجه الدائن بالفائدة. يبدو أن نصائح العلّامة قد فعلت فعلها، بالإضافة إلى النوم طوال ليلة هادئة؛ فاستكان حنقه الذي رافقه في اليوم الفائت.

تمّ الأمر بسرعة؛ ندم «مورسار» على تصرفاته في ليلة البارحة، كما شدد على مسألة أنه لن يصادر محتويات مشغل «دودو سوك»؛ الذي أخرج من محفظته إشعارًا بِدَيْنٍ موافقٍ للأصول إضافةً إلى كمبيالات عليها تاريخ الاستحقاق والمبلغ المتوجب دفعه.

قرأ ما دوّن عليها وطلب شهادة «سيريني ندوغال» الذي أوصى بهكذا تسوية بالإضافة إلى شهادة سنغالي آخر يدعى «بصير ديوب» يعيش في «لاغوس». وقّع الرجلان على العقد بعد أن وقّع الصائغ والمقاول.

بعد مضي يومين، ذهب «سيريني ندوغال» وطلب مقابلة سعادة السفير. كان السفير معتادًا على استقبال

البطريرك بحفاوة، بيد أنه أصيب بالذهول عندما وصل العلّامة العجوز وبرفقته الساحلي ورجلٍ آخر يبدو عليه أنه رجلٌ محترمٌ جدًا، عرّف عن نفسه أنه محامي دفاع عن مصالح ثلاثة مواطنين من الفيدرالية لديهم نزاع مع مواطنين سنيغاليين. بعد أن صرّح المحامي أن وساطته غير رسمية، أبلغ السفير أن موكلوه سيعمدون إلى إرجاع ثلاثة ملايين من الملايين الخمسة إلى الرجلين السينغاليين...

بكل تهذيب أعلن السفير أن هذه «المسألة» خارجة عن صلاحيات السفارة ومهمته فقط مراقبة أعمال التسوية... فقيل له إن تسوية هذا الموضوع تعود بالنفع إلى «الزبائن».

عاد الرجال إلى «سوروليري»: «دودو سوك» الوسيط العاثر الحظ، «موسار» المقاول والدائن بالفائدة، «سيريني ندوغال» البطريرك. ذهب هؤلاء، هذه المرة، إلى الأرض اليباب، وفي وضح النهار يقتادهم الساحلي والمحامي والمواطنون النيجيريون، فاجتمع شملهم من جديد وقد جلسوا حول الطاولة المستطيلة في تلك الغرفة العارية. ماذا قالوا وكيف اتفقوا؟ كيف تدبروا أمرهم؟...

الفصل الثلاثون

انصرمت ثلاثة أشهر. عاد السفير إلى «بينين» حيث أنيطت به مهمة إحصاء المواطنين السينغاليين كما اقتضى القانون الجديد الذي وضعته الحكومة المحلية المنتخبة حديثًا. ولدى وصوله صادف المقاول، الصائغ والشيخ العلّامة الذي انضم إليهم الساحلي الذي يسكن معظم الوقت في «لاغوس». كان الساحلي يعود من الإقامة الجبرية التي فُرضت عليه فقد حَجَرَ عليه مواطنوه لبعض الوقت. فهم الرسالة ففضّل أن يتنحّى عن طريقهم. وعلى عادته التي فطر عليها، كان يتحيّن الفرصة ليعود ويدخل في حلقة الأعمال من جديد بدعمٍ من البطريرك. كان التجمع من أجل الإحصاء يشكّل بالنسبة له غطاء ملائمًا لهذه «العودة» والاندماج من جديد.

كان المقاول متشبثًا برأيه تجاه الساحلي لكنه في النهاية صافحه وكلّمه بعد أن صافح الجميع. وأخذ يقول بدون حنقٍ حقيقي ولكنه كان يعني ما يقوله:

ـ هذا الرجل لن يتوب! عقله سليم وأيضًا جسده... إنه صاحب حرفة رائعة! إنه خلّاق يمتلك خيالًا فيّاضًا! بيد

أن الخطورة لديه هو أنه يعد القصور لغيره وينام هو في الأكواخ! إنه يخطط، يحلل وينفذ ولكن لمصلحة الآخرين!!! لو يستطيع فقط أن يجني ثمار ذكائه! ولكن لا! إنه يكتفي بالفتات! ربما هذه هي طريقته في الحياة... لن أحثّه على العيش دائمًا في الجريمة! ولو أنني أحارب نفسي فأنا أشعر بالضعف تجاهه! أحب من كل قلبي أن أراه يعود إلى وظيفته الأساسية، ليصنع فتائل الذهب لمتعة العين وفرحة السيدات!

بينما كان «مورسار» يعدّ خططًا لمستقبل الساحلي، ذهب هذا الأخير وقد غفرت له خطاياه إلى المطبخ، حيث اختلط بالنساء اللواتي قدمن من أجل الإحصاء وأخذ يتلو قصصًا لا يجيد أحد تلاوتها سواه؛ فأخذت الضحكات تُسمع، وهو ضحك أيضًا وقد ظهر على محياه الإشعاع والانفتاح، بان عليه أنه طيب القلب، سموحٌ.

كيف لهذا الرجل صاحب الأنامل السحرية القادرة على تحويل الذهب الخالص وجعله تحفًا تزين النساء، أن يعيش عيشة السوء والقلق في بلاد الأنهار؟ لقد بدّل اسمه واتخذ له اسمًا آخر، لقبٌ يعرف به: «ساحلي لاغوس»، في بلاد الأحراش، هناك أشخاصٌ كثر لا يفصلون قصته عن تلك التي حصلت لـ«ماودو» الصائغ الذي شلّت يده بفعل سحرٍ مشعوذٍ. بيد أن «ماودو» هو رجل أصيل صاحب

جذورٍ عميقةٍ. لم يكن ليتحوّل إلى شريدٍ مصيره الترحال الدائم في مستنقعات أنهر الجنوب.

ماذا سيحصل للرجل الذي صار اسمه «ساحلي لاغوس»؟... قال «سيريني ندوغال» العلّامة العجوز وهو يتنهّد حسرةً:

ـ سيعود به اللّه يومًا إلى بلاده، إلى أقصى الشمال؛ نحو كتلة البازالت والغرانيت حيث انبثق «الرأس الأخضر»... سيُطهّر في أمواجٍ روّضها المحيط الأطلنتي... ومن جديد سيتحوّل إلى صائغٍ «يخلق تحفًا جميلة».

باريس 17 شباط 1980



الكاتب:
لامين دياكاته

صدر للمؤلف عدّة كتب في الشعر والقصص القصيرة والدراسات:

- فرح قارة (شعر) P.A.B آليس.
- أوليات اليوم السادس (شعر) باريس.
- زمن الذاكرة (شعر) باريس.
- النيجيري (شعر) N.E.A
- أسير النظرات (مجموعة قصصية) N.E.A
- قراءة حرّة لمؤلف «رسائل الإشتاء وقرابين سوداء» دراسات N.E.A
- تشاليس شارع هارلم N.E.A
- أرض وسيطة (تير ميديان) سان جيرمان دي بري- باريس.

ISBN 978-614-404-005-8
9 786144 040058